كلمة العـــدد :

سنة 2009 محطة هامة في تاريخ تونس الحديث

بقلم : محمد الرزقي

تستقبل تونس مثلها مثل سائر أقطار العالم، سنة إدارية جديدة، وكلها عزم على المضي قدما، على طريق التطور والبناء، مجددة العهود والمواثيق مع قائد مسيرتها على درب الحضارة والنماء، خاصة أن تونس تنتظهر محطات هامة وحاسمة، خلال سنة 2009.

وأول هذه المحطات ، نجد الانتخابات الرئاسية القادمة والتي تثبت مدى تمسك القيادة في تونس بخط سياسي واضح يقوم على الديمقراطية ويستند إلى آراء الجماهير الشعبية، زيادة على أن تونس ستكون سنة 2009 محط أنظار العالم الإسلامي بأسره، وقبلة العلماء والباحثين والدارسين من المسلمين والمستشرقين على حدّ سواء، باعتبار أن القيروان وقع عليها الاختيار كعاصمة للثقافة الإسلامية، خاصة أن هذه المدينة تعتبر من اعرق المدن الإسلامية في القارة الإفريقية على الإطلاق، إذ تأسست سنة 50هـ أي بعد خمس عقود فحسب، من بداية الدعوة الإسلامية، ومثلت قاعدة الفتح الأساسية لأقطار عدّة، لعلّ من أهمها الأندلس.

كما شكلت القيروان نقطة إشعاع ثقافي وحضاري، يرتكز على فكر الاعتدال، ويقوم على مبدأ الوسطية، فأخرجت علماء أعلام مثل الإمام سحنون، وأبو زيد القيرواني، وأسد بن الفرات، وهذا الأخير جمع بين

الدراية الفقهية، والتي أظهرها من خلال مدونته الأسدية، والبراعة في القيادة العسكرية، لما قاد جيش المسلمين، وفتح صقلية.

وهكذا يظل الماضي فاعلا في الحاضر، وطرفا مؤثرا فيه، وخاصة وأن الإسلام والعروبة، يشكلان معا، أحد أبعاد وجود التونسي كذات وأهم طابع يميز هويته، وهو ما وعت به القيادة الرشيدة منذ السنوات الأولى للتغيّر، فحافظت على طابع البلاد العربي والإسلامي.

ويكفينا اليوم فخرا أن المدارس القرآنية تعم جميع أطراف البلاد، كما برزت إذاعة الزيتونة كقطب إعلامي محببا لقلوب الجميع وحتى القطاع الخاص وجد كل التشجيع في هذا الباب، ويذكر على سبيل المثال فضائية "حنبعل فردوس للقرآن الكريم" والتي أتوقع أن تشكل نقلة نوعية في مجال الإعلام الديني. لذلك تبقى أبواب الأمل والتفاؤل مشرّعة أمامنا، بغد أفضل لتونس ولعالمنا العربي والإسلامي لكن والمجلة نستعد لطبعها طالعتنا أخبار مؤلمة تتمثل في أنباء عن هجمة مروعة تعرض لها أهالي غزة الأبرياء أتت على الشجر والبشر وحولت القطاع إلى أرض محروقة، لا يسمع فيه إلا أنين المكلومين والمجروحين والثكلى، فأتمنى أن لا يطول ليل هذا العدوان وأتمنى من القرّاء الأعزاء أن يهبوا كعادتهم وكعادة هذا البلد الطيب لنجدة إخوانهم الفلسطينيين خاصة أن الدماء الفلسطينية والتونسية اختلطت في غارة حمام الشط.

لا تنسوا أعزائي القرّاء ، إخوانكم الفلسطينيين ولو بالدعاء.

مع " الأيام " لـــ "طه حسين"

بقلم : محمد حجاج

يعتبر "طه حسين" واحدا من أبرز رموز التنوير، في مسيرة تطور الفكر العربي، كما يعد من أكثر الأقلام جرأة في مواجهة تراكمات التخلف والجمود والجهل والظلم، التي كانت – وربما لا تزال- تكبل حركة مجتمعاتنا العربية، في سعيها نحو التقدم.

عاش "طه حسين" مرحلة طفولة صعبة وقاسية، وسط بيئة متواضعة، في عزبة "الكيلو" قرب مدينة "مغاغة" بمحافظة "المنيا"، في مصر، منذ أكثر من مائة عام، وتعتبر هذه المرحلة المهمة من حياته، والبيئة التي قضاها فيها مسرحا لأحداث سيرته الذاتية "الأيام" والتي نعني بها جزءا هو الأول من ثلاثة، هو من بينها الأكثر قيمة وأبعد أثرا. وقد بدأ طه حسين في إملاء فصول ذلك الجزء، في أثناء أزمته الشخصية التي عانى منها، على إثر ردود الفعل العنيفة التي ثارت في وجهه، بعد أن نشر كتاب "في الشعر الجاهلي" سنة 1956م.

فقد "طه حسين" بصره وهو في السادسة من عمره، وقد تأثر بمحنته الذاتية، التي ترتبت على ذلك تأثرا عميقا، لما تركته هذه العاهة من عجز مباشر ودائم في نفسه، إضافة على الأزمة الشخصية التي خلفتها معاناته مما كان يلقاه – بسبب عاهته تلك- من بعض أفراد مجتمعه المتخلف، من رثاء متكلف، أو استهانة وازدراء، بل وربما سخرية

واستهزاء. والشيء الراجح في تفسير الدافع على فعل الكتابة هنا، هو أن صفحات هذه "الأيام" إنما جاءت كثمرة لوقفة مع النفس، أفضت عن البحث في أعماق الذات، تلك الوقفة التي قد يقفها أي إنسان يتمتع بخاصية التفكير والتأمل،- على أثر التعرض لمحنة قاسية، -محاولا أن يستنبط ويستمد من أيامه ومعاناته السالفة، زادا يقوى به على مواجهة أزمته الآنية.

والذي لا خلاف عليه ، هو ان طه حسين، حين املى فصول ايامه، لم يقع في فخ تزييف الواقع، ومن الثابت أن "الأيام" تأتي في طليعة السير الذاتية التي كتبت بالعربية، من حيث الالتزام بالصدق والموضوعية في نقل صورة للواقع الاجتماعي المعيش، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، ونحن لن نهتم كثيرا بالدخول في تفصيلات هذه الصورة، وسنكتفي بمجرد الإشارة إلى إحدى الجزئيات الهامة التي وردت فيها، وهي جزئية ترتبط بحدث محوري في هذه السيرة، بل الحدث المحوري في حياة "طه حسين" كلها، وهو الحدث الذي أفضى إلى فقدانه لبصره وانحسار الضياء عن عينيهن ودخوله من ثم إلى دنيا الظلام، وتتحدد عناصر هذه الجزئية كما وردت في الفصل الثامن عشر من الجزء الأول من الأيام كما يلي :

" ... والأطفال في القرى ومدن الأقاليم معرضون لهذا النوع من الإهمال، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد، وربة البيت كثيرة العمل، ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة، وعلم ليس أقل إثما،

يشكو الطفل وقلما تعنى به أمه، وأي طفل لا يشكو ! إنما هو يوم ثم يفيق ويلّ، فإن عنيت به أمه فهي تزدري الطبيب أو تجهله، وهي تعتمد على هذا العلم الآثم، علم النساء وأشباه النساء، وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيه، أصابه الرمد فأهمل أياما، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه".

وننتقل الآن نوع آخر من الصور، ونعني به الصورة الفنية، وقد جاءت الصور الفنية في ذلك الجزء الأول من "الأيام" متواكبة، وهي مرسومة بدقة وعناية، وفي نبرة أسلوبية متميزة ما يضفي عليها – مع اختلاف في الدرجة بالطبع- قدرا كبيرا من الصدق الفني، ولعل هذا هو أهم ما يميز ذلك الجزء الأول عن الجزئين الثاني والثالث من "الأيام"، وربما كان ذلك راجعا في الأساس، على ارتباط ذلك الجزء بمرحلة طفولة الكاتب، بكل ما تمثله من بكارة الحياة، وليونة المشاعر والانطباعات والأحاسيس، التي تترسب منذ أيام الوعي الأولى في أعماق الذات، وتحتل موقعا فريدا وحيويا في قلب الوجدان.

والمجال هنا قد لا يسمح، لأن نخوض في غمار الصور الفنية، وهي كما لاحظنا كثيرة، وسنكتفي بالإشارة إلى اثنتين منها، أولاهما هي تلك التي بدات بها الأيام.

حين شرع في كتابة سيرته الذاتية، بحث طه حسين عن نفسه في أعماق ذاكرته، فكانت هذه أولى الصور، فنحن هنا إزاء صبي صغير، بدأ ذات يوم- وبالكاد- يعي من نفسه شيئا، غلا انه عاجز في نفس

الوقت عن إدراك أشياء كثيرة مما حوله، فجاءت الصورة محاطة بالغموض، مغلفة بضباب كثيف، فهو:

"لا يذكر لهذا اليوم اسما، ولا يستطيع ان يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع ان يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه وإنما يقرب ذلك تقريبا".

وربما يرجع هذا العجز عن التذكر والإدراك في بعض جوانبه على طفولية الذاكرة وهشاشتها في هذه المرحلة الباكرة من العمر، غلا انه في جوانب أخرى له سبب آخر، هو أن الصبي مختلف في شيء ما عن الآخرين، فعيناه لا تتيحان له أن يرى، إلى حد انه يجهل "حقيقة النور والظلمة" مما يضطره على اللجوء على التخمين في تحديد ذلك الوقت من ذلك اليوم، مستهديا في ذلك بما كان يحسه من درجة برودة الهواء الذي تلقاه في وجهه حين خرج من البيت، وبمدى الظلمة التي كانت تغشى حواشيه ثم بإحساسه وإدراكه بوهن ومغزى حركة الأحياء من حوله.

وإذا كان قد بقي له من ذلك المشهد ذكرى واضحة، لا سبيل على الشك فيهان فهي ذكرى ذلك السياج "الذي كان يقوم أمامه من القصب، والذي لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار، هو يذكر هذا السياج كأنه رآه أمس".

والسياج في اللغة هو السور، وهو هنا تجسيدٌ مادي (معادل موضوعي) لتلك الحيلولة أو التواصل المفقودين بين ذلك الصبي وعالمه

المحيط به، كنتيجة طبيعية لفقدانه لبصره، وترد العبارات التالية عن السياج لتؤكد ذلك المعنى، فهو "... يذكر أن قصب هذا السياج كان أطول من قامته، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه، ويذكر أن قصب هذا السياج كان مقتربا كأنما كان متلاصقا، فلم يكن يستطيع أن ينسل في ثناياه، ويذكر أن قصب هذا السياج كان يمتد عن شماله على حيث لا يعلم له نهاية، وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية".

أما الصورة الثانية، فهي تلك التي جاءت في الفصل الثامن عشر، والتي يكاد "طه حسين" أن يختتم بها صفحات الجزء الأول من "الأيام".

كانت الأحزان قد عرفت طريقها على أسرة الصبي، فقد اختطفت المنية طفلة في الرابعة من عمرها، هي صغرى ما أنجبت الأسرة من أبناء هبط عليها طائر الموت سريعا، في يوم يفترض أنه يوم سرور وبهجة للجميع، يوم عيد الإضحى، ليس هذا فحسب، بل كأن الأحزان حين تأتي، لا تأتي فرادى "فما هي إلا أشهر حتى فقد رب الأسرة اباه الهرم، وماهي غلا أشهر أخرى، حتى فقدت ام الصبي أمها الفانية، حداد متصل وألم يقفو بعضه بعضا"، حتى كان ذلك اليوم الذي لم تعرف الأسرة يوما مثله.

كان الصيف صعبا وقاسيا في هذه السنة 1902م، وكان وباء الكوليرا قد هبط أرض مصر ففتك بأهلها فتكا ذريعا، وكان للأسرة ضمن ابنائها فتى في الثامنة عشرة من عمره "جميل المنظر رائع الطلعة... وكان

أنجب الأسرة وأذكاها، وأرقها قلبا واصفاها طبعا، وأبوها بأمه وأرأفها بأبيه وأرفقها بصغار إخوته وأخواته، وكان مبتهجا أبدا"، وكان قد حصل في هذه السنة على شهادة الباكالوريا، وقدم أوراقه لكلية الطب، منتظرا أن تنقضي أشهر الصيف ليرحل إلى القاهرة للدراسة بهذه الكلية، فلما كان هذا الوباء، اتصل الفتى بطبيب المدينة، وأصبح مرافقا له في علاج المرضى، فيما يعتبر تمرينا له "على صناعته" كما كان يقول.

وجاء يوم العشرين من اغسطس، وأقبل الفتى في آخر النهار من رفقة الطبيب كعادته "باسما، فلاطف أمه وداعبها وهدّأ من روعها"، وطمأنها بأن حدة الوباء قد بدأت تخف " ولكنه مع ذلك شكا من بعض الغثيان، وخرج على أبيه فجلس إليه وحدثه كعادتهن ثم ذهب على أصحابه فرافقهم على حيث كان يذهب معهم في كل يوم عند شاطئ الإبراهيمية، فلما كان أول الليل عاد وقضى ساعة في ضحك وعبث مع إخوته ثم ذهب لينام.

"وكانت الدار هادئة مغرقة في النوم كبارها وصغارها وحيوانها عندما انتصف الليل، ولكن صيحة غريبة ملأت هذا الجو الهادئ فهب لها القوم جميعا"، وكان مصدر هذه الصيحة صوت الفتى وهو يغالب حشرجة القيء، وقد سرت العلة في جسده، بعد أن قضى من ليلته "ساعة أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ليقيء في الخلاء مجتهدا ألا يوقظ أحدا".

"إذن فقد أصيب الشاب، ووجد الوباء طريقه إلى الدار، وعرفت الأم

بأي أبنائها تترل النازلة"، وانفطر قلب الأب، إلا أنه بدا رغم ذلك جلدا رزينا، "آوى ابنه إلى حجرته، وأمر بالفصل بينه وبين إخوته، وخرج مسرعا... وما هي إلا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب".

ثم توالت حشرجات القيء، إلا أحدا لم يستطع أن يحول بين بقية الأبناء وبين الفتى، الذي رقد في الفراش مريضا وأحاط به إخوته ،هم واجمون، والفتى رغم ذلك "يداعب أمه كلما أمهله القيء، ويعبث مع صغار إخوته"، إلا أن حالته كانت تتدهور مع سريان ساعات، الليل، ونهار اليوم التالي : الواحد والعشرين من اغسطس سنة 1902، بينما الفتى في فراشه يتضور، حتى عجز تماما عن الحركة، وراح يئن أنينا يخفت مع مرور الوقت، ثم فاضت روحه "وما هي إلا ساعة، أو بعض ساعة، حتى كان الفتى قد هيئ للدفن، وخرج به الرجال على أعناقهم".

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

"من ذلك اليوم استقر الحزن العميق في هذه الدار"، ولم يعد حال أهلها كما كان قبل وقوع هذه الفاجعة.

"ومن ذلك اليوم تعود الشيخ ألا يجلس إلى غدائه ولا إلى عشائه حتى يذكر ابنه ويبكيه ساعة أو بعض ساعة، وأمامه امرأته تعينه على البكاء، ومن حوله أبناؤه وبناته يحاولون تعزية هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئا فيجهشون جميعا بالبكاء".

مأساة

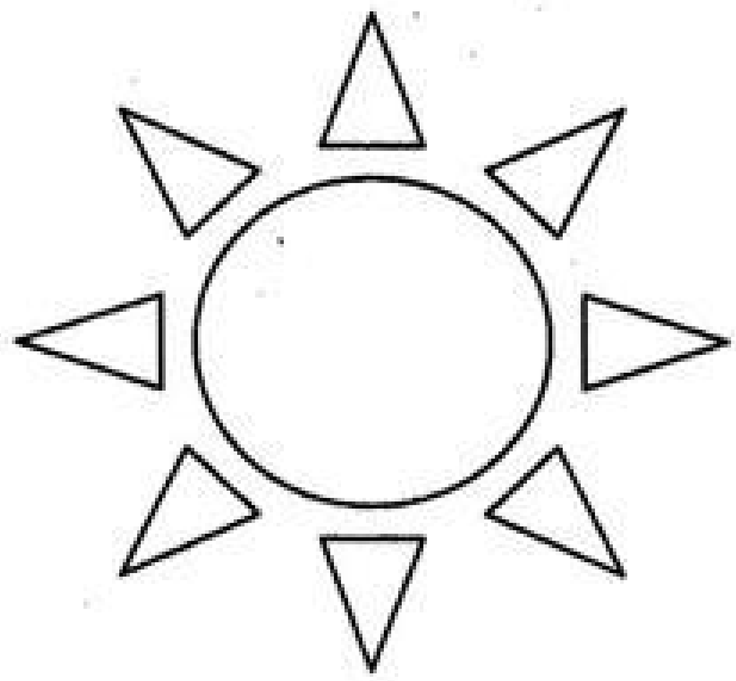
وباء فتاك ضار، يهاجم مجتمعا متخلفا، لا يمتلك من الوسائل والأدوات ما يقاوم به ذلك الوباء بل هو حدث فاجع لواحدة من أسر ذلك

المجتمع، بائسة، تصاب في الصميم، فتفتقد على مذبح الوباء زهرة بنيها.

جزئية من صورة اجتماعية تحققت لها خاصية الصدق مع الواقع، بمعنى تبوئها واقعا كحدث رئيسي، كانت له نتائج مريرة ممضة في وقائع الحياة اليومية لهذه الأسرة، بل إن آثار هذه النتائج راحت تتغلغل مترسبة مع توالي الأيام، في وجدان أفراد الأسرة، حتى ظهرت آخر الأمر، وبعد مرور سنوات، على هيئة صورة، رسمها ذلك الصبي الصغير، الذي كان مترويا — لا يكاد يحفل به أحد- يمزق الحزن قلبه تمزيقا، وهو يشهد الحدث الفاجع، في ناحية من نواحي تلك الحجرة، التي رقد فيها الفتى أخوه، ينازع الموت الذي بدأ.

يغزو جسده خلية خلية، قبل أن يستسلم تماما له، صورة رسمها قلم ذلك الصبي الذي غدا فيما بعد "طه حسين" الكاتب الأديب المفكر، رسمها بعناية فنية فائقة، وبأسلوب متميز فريد، فتحقق لها بذلك قدر عظيم من الصدق الفني أيضا.

فجاءت صورة تفيض بالدمع باكية ، ومبكية .



الحوار... والمقاولة

-الـــجزء الأول-

بقلم : د. صالح داسي

تقديم :

(الحوار عنصر من عناصر القصة في القرآن الكريم التي ترتكز محاورها على التوحيد، والرسالة والبعث) (1) فعنصر الحوار (تدرج بالقصة من الإشارة إلى التفصيل ومن العام إلى الخاص، ومما تغني فيه العاطفة إلى ما يحتاج إلى الفكر والنظر) (2). لذلك عندما نتمعن قصص القرآن نجد فيها حوارا بين الإنسان ونفسه (الأنبياء : 57 والبقرة : 259) وبين الإنسان وربه (القصص: 24 ويوسف: 33) وبين الرسل وأقوامهم (الشعراء : 69-82 والمائدة : 22-23) إلى غير ذلك من أنواع الحوار، ومن ثم فإن طبيعة المعرفة المطلوبة في العديد من الآيات القرآنية تقتضي استخدام منهج الحجة والاستدلال، والحوار وسيلة من وسائل المنهج الاستدلالي في القرآن الكريم فما هو الحوار في اللغة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1- الحوار في اللغة والاصطلاح :

أ- لغة : يقال (حار يحور: رجع وحاوره : جاوبه وراجعه الكلام تحاور القوم تحاورا : تجاوبوا وتراجعوا الكلام) (3) . جاء في لسان العرب قوله (أحار عليه جوابه : أي ردّه . وأحرت له جوابا وما أحار بكلمة، والإسم من المحاورة الحوير، تقول : سمعت حويرهما وحوارهما.

والمحاورة المجاوبة والتحاور التجاوب، وتقول كلمته فما أحار إليّ جوابا وما رجع إليّ حويرا ولا حويرة ولا محورة ولا حوارا أي ما ردّ جوابا) (4) . وجاء في القاموس المحيط (تحاوروا أي تراجعوا الكلام بينهم... التحاور : التجاوب) (5) فالحوار بمعنى المحاورة وذلك أن المحاور يبحث عن جواب غما بينه وبين نفسه أو بين خالقه أو ممن يحيط به.

ب- اصطلاحا : **هو كلام نفسي، أو لفظي، يقتضي البحث عن جواب او هو تبادل الرأي من أجل الوصول إلى إدراك الحقائق، كما أنه ظاهرة تقارب في القضايا الهامة سواء كانت (سياسية أو إقتصادية أو ثقافية أو حضارية...) (6) أو دينية. ولما كان القرآن الكريم دين حضارة فقد دعا على الحوار والجدل والمحاجة لكن بالحكمة والموعظة الحسنة. قال تعالى : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " (النحل : 125).**

وقد يلتبس على البعض الجدل بالحوار، فما هو الجدل ؟

2- تعريف الجدل :

أ- لغة : الجدل: الصّرع. وجدله جدلا وجدّ لهف فانجدل وتجدّل: أي صرعه على الجدالة وهو مجدول (7) فهو اللّدّة في الخصومة والقدرة عليها، يقال جادلت الرجل فجدلته جدلا: أي غلبته، ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام والإسم (الجدل) هو شدة الخصومة. وهو ما

يؤكده قوله صلى الله عليه وسلم : ما ضلّ قوم بعد هدى عليه إلا أوتوا الجدل (9) ثم تلا قوله تعالى : "ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون" (الزخرف 58).

وأصل الاشتقاق من الجدل وهو شدّة الفتل ومنه قبل لزمام النماقة جديل، قال امرؤ القيس في معلقته:

وكشح لطيف كالجديل مخصّر وساق كأنبوب السقيّ المدلّل (10)

ب- اصطلاحا : المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم وهو ما يستفاد من قول الجرجاني (هو عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، وهو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة) (11) لذلك اعتبره الغزالي من آفات اللسان حيث قال في إحياء علوم الدين : "وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه... ليبين بذلك فضل نفسه ونقص صاحبه ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لم يأثم به لو سكت عنه (12) و لم يكتف أبو حامد الغزالي بإظهار مقصد المجادل من المجادلة بل ذكر الدوافع النفسية الباطنية التي تدفع بالمجادل إلى مثل ما يقوم به فقال : "وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها... " (13) لذلك نجد ناصر الدين الحنبلي يقول كلمته الفاصلة : "فأما الجدل فهو مذموم في كل موضع ذكر إلا في ثلاثة مواضع (14)

- الموضع الأول : في سورة النحل قال تعالى : أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل:125)

- الموضع الثاني: في سورة العنكبوت،قال تعالى : "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن" (العنكبوت:46)

- الموضع الثالث: في سورة المجادلة قال تعالى : "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله" (المجادلة:1)

فالجدل قسمان: محمود ومذموم والصنف الأول الذي (سلكه الأنبياء الكرام مع أقوامهم من طرق بيانية في سبيل نشر ما كلفوا به من دعوات، وخاصة ماكانوا يقومون به من مناظرات ومحاورات ومناقشات يردون فيها على المواجهات) (15) ومن أفانين القول بين الإنسان والإنسان أو بين الإنسان والجماعة أو بين مجموعة وأخرى، الحكاية والخطابة والمناظرة والمقاولة والمفاقمة (16) وكذلك المناقشة والمساجلة والمباحثة والمسامرة والمنادمة والمحادثة والجدل والحوار. وقد استفيد من بعضها في مجالات التربية والتعليم ودور الثقافة ومنتديات العلم والمعرفة ووسائل الدعوة والإرشاد .

ومن أراد المزيد من معرفة الفروق بين هذه الوسائل المعرفية فليعد إلى كتب المعاجم اللغوية مثل كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني، وأساس البلاغة للزمخشري، ولسان العرب لابن منظور، والتعريفات للجرجاني، والقاموس المحيط للفيروزبادي. وقد الفت كتب مفردة في الجدل مثل كتاب الجدل في القرآن الكريم للدكتور محمد

العوني، ومناهج الجدل في القرآن الكريم للدكتور زاهر بن عواض الألمعي، كما الفت كتب تجمع بين الحجاج والجدل مثل مواقف الحجاج والجدل في القرآن للدكتور الهادي حمو وهم مرقون بمكتبة جامعة الزيتونة تحت عدد 12 وقد طبع أخيرا كما ألفت كتب تجمع بين الحوار والجدل مثل الحوار والجدل في القرآن الكريم لمحمد الحسيني وقام بنشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

وقد عرف العرب قبل الإسلام من فنون النثر: الخطب والأمثال والمحاورات. والمحاورات نوعان :

- المحاورات العادية
- المحاورات الهامة التي تقع في النوادي

يقول محمد الطاهر ابن عاشور : (وأما المحاورات فمنها العادية التي لا يهتمون بما تتضمنه إذ ليست من الأهمية بحيث تنقل وتسير، ومنها محاورات نواد وهي المحاورات الواقعة في المجامع والمنتديات) (17) وهذا النوع من المحاورات هو الذي أشار إليه لبيد في معلقته :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ترجى نوافلها ويخشى ذامّها
غلب تشذّر بالذّمول كأنّها جنّ البديّ رواسيا اقدامها
انكرت باطلها وبؤت بحقّها عندي و لم يفخر عليّ كرامها

شرح البيت الأول : الذم والذام : العيب يقول ورب مقامة أو قبة أو دار كثرت غرباؤها وغاشيتها وجهلت أي لا يعرف بعض الغرباء بعضا، ترجى عطاياها ويخشى عيبها يفتخر بالمناظرة التي جرت بينه

وبين الربيع بن زياد في مجلس النعمان بن المنذر ملك العرب. والمعنى : ورب دار كثرت غاشيتها لأن دور الملوك يغشاها الوفود وغرباؤها يجهل بعضهم بعضا، وترجى عطايا الملوك وتخشى معايب تلحق في مجالسها.

شرح البيت الثاني : الغلب: الغلاظ الأعناق، التشذّر : التهدد، الذحول : الأحقاد، البديّ : موضع، الرواسي: النوابت . والمعنى : هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود، أي خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضا بسبب الأحقاد التي بينهم، ثم شبههم بجن هذا الموضع في ثباتهم في الخصام والجدال، فهو يمدح خصومه وكلما كان الخصم أقوى وأشدّ كان قاهره وغالبه أقوى وأشدّ .

شرح البيت الثالث : باء بكذا : أقرّ به، والمعنى: أنكرت باطل دعاوى تلك الرجال الغلب وأقررت بما كان حقا منها عندي، ولم يفخر عليّ كرامها : أي لم يغلبني بالفخر كرامها : أي لم يغلبني بالفخر كرامها (18).

وبما أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين فإن مترله راعى أفانين اللغة العربية (فجاء القرآن بأسلوب في الأدب غض جديد لكل العقول، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة: فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال – أي الكلم الجوامع – والقصص والتوصيف والرواية (19) كما اشتمل على المحاجة أيضا (20).

فالحضارة الإسلامية أقيمت على حرية الرأي والكلمة بأي أسلوب رفيع (ومن اعتزاز المسلمين بحرية الكلمة ما كان يصدر عنهم من آراء في مجالس العلم وفيهم المسلم والمسيحي والشيعي والمجوسي فما كان أحد يصادر حرية أحد، وإنما كانت آراؤهم الحرة تأخذ وصفها في تلك المجامع) (21) وبذلك تمكن الأفراد والجماعات من التحاور فيما بينهم، وبالتعبير عن مختلف آرائهم وأفكارهم، فكان الإبداع والإثراء والحضارة في أبهى أشكالها. ومادام موضوع بحثنا هو الحوار كظاهرة حضارية قرآنية فيحسن بنا ان نشير إلى علاقة الحوار بالقصص القرآني.

3- علاقة الحوار بالقصص القرآني : إن قصص الأنبياء تمثل موكب الإيمان الممتد من أول الخليقة إلى نهايتها (22)

والحوار عنصر من عناصر القصص التي هي مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني.

الإعجاز ..... القصص ..... الحوار

ومن أهداف القصص القرآني إثبات رسالة الرسول الذي أرسله الله إلى قومه وإلى الناس كافة، ومن أهمها الدعوة أساسا إلى وحدانية الله، والإقلاع عن الشرك والمعبودات الباطلة، وتوجيه الناس إلى الإيمان بحياة أخرى، وبيوم الفصل الذي يحاسب فيه الله الناس، على ما قدمت أيديهم. وبما أن الناس يزومون ما تواضع عليه أباؤهم وأجدادهم فإن انتقالهم من التقليد إلى التوحيد ومن طاعة الملوك إلى طاعة الخالق ومن التنحي عن الميولات النفسية إلى العمل إلى ما بعد الموت من الصعوبة

بمكان، لذلك أرسل الله الرسل حتى لا تكون هناك حجة على الله بعدهم قال تعالى : رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرّسل" (النساء : 165).

فكان هناك صراع بين الحق والباطل وكان هناك رفض وإعراض ودعوة وتوجيه وإرشاد فنشأت عن ذلك مشادات ومشاهد. تصور دعوة الداعي وإنكار المنكر والحديث النفسي المطبوع تارة بالإيمان وأخرى بالكفران. ومن ثم فإن دخول الحوار القصص فيه تدرج بالقصة من الإشارة العابرة إلى التفصيل، ومن القول العام إلى الخاص وبالانتقال من العاطفة إلى مجال الفكر والتأمل والتدبر والنظر (فالحوار عنصر من عناصر القصة القرآنية وخاصة في القصص الطويلة مثل قصة يوسف وموسى وقصة آدم) (23).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومما تجدر الإشارة إليه أن الحوار يختلف وجوده في السور المدنية عنه في السور المكية، وذلك لأن القصص القرآنيَ في السور المدنية يختلف عما هو عليه في السور المكية لما فيها من إيجاز وفواصل جد قصيرة وسجع يعبر عن الجرس اللفظي مثل ما جاء في سورة المدثر – مكية – عدد 11– 30 وسورة الفجر – مكية– 6–13 وسورة الشمس – مكية – 11–15. أما إذا تتبعنا القصص في السور المدنية فإننا نجد الآيات تطول والفواصل تتباعد والخصام يحتد ويتطور تبعا لتطور الدعوة وذلك لأعتبارات ثلاثة :

أ– اختلاف المخاطبين باختلاف البيئة

2- تمكن الإسلام من القلوب وتأسيس المجتمع الإسلامي

3- أن القصص أصبحت أطول لأن المخاطب أصبح في شوق إلى ما يلقى إليه بعد أن كان في مكة معرضا عما يلقى إليه (فبرز الحوار في موضوعات الدعوة كالتوحيد والرسالة والبعث ومضت القصة في أناة ومهل تصور الحياة وتعبر عن الشخصية فجاءت أكثر تبسطا وتفصيلا وجاءت آياتها أكثر طولا لأنها تتجه إلى إثارة التفكير والتأمل والتروية فيما جرى على الأمم من قبل) (24) لكن ليس هذا مطردا فقد نجد الحوار في السور المكية مثل ما نجده في السور المدنية مثال ذلك (ما جاء في سورة طه : 49-76 فهي مكية نزلت بعد سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء (25) ومثل ما جاء في سورة الأعراف : 11-27 فهي مكية أيضا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالحوار في القصص القرآني وخاصة السور المدنية (لم يسلك مسلك التبسط بل رسم فيها معالم الشخصيات الإنسانية بالتعبير عن خواطرهم النفسية وآرائهم ومواقفهم وما شجر بينهم من صراع عن طريق الحكاية عنهم) (25). إلا أن ما نقل في القرآن لم يعرض القصة لذاتها كما أن الحوار لم يكن لذات الحوار وإنما اتخذ ذلك منهجا ودليلا على معجزة الرسول بأسلوب اخّاذ، فالقرآن (لم يلتزم حكاية الفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم دون التزام الألفاظ لأن الإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية) (27).

ومن ثم فإن الحوار له علاقة بالقصة القرآنية من حيث ذكر الأشخاص والوقائع : انظر :

1- سورة هود – مكية- 25-34 المتضمنة لحوار نوح مع قومه

2- سورة الشعراء – مكية – 50-66 المتضمنة لحوار موسى مع قومه وتدخل القدر الإلهي لنصرته

3- سورة الحاقة – مكية 4- 12 المتضمنة بإيجاز كبير قصصا أربعة، قصة قوم ثمود وقصة قوم وقصة فرعون وقصة نوح وما أصاب هذه الأقوام الأربعة من عذاب واقع.

4- سورة الأعراف – مكية 150-151 المتضمنة لحوار موسى مع قومه أيضا.

5- سورة يوسف – مكية- 21-102. وقد انفردت هذه السورة بقصة يوسف عليه السلام فجاءت متكاملة العناصر والمشاهد آسرة للنفس آخذة بمجامع القلب وصدق الله في قوله : :"نحن نقصّ عليك احسن القصص" (يوسف : 3)

6- سورة القصص – مكية – 23-28 وتضمنت حوار موسى مع شعيب وابنتيه (فكان الحوار القصصي في القرآن ذا شأو بعيد جدا في إحياء المشاهد التي اشتمل عليها الحدث القصصي... فكان عنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها الدفاع عن الدعوة الإسلامية... ومن هنا نستطيع أن ندرك الفرق الكبير بين القصص الأدبي الذي تتحرك فيه الأشخاص وتتحدث بما يضع القاص

على ألسنتهم من حوار... وبين قصص القرآن الكريم (28) الذي يعتمد الحق والصدق في تصوير الانفعالات والأحاسيس ويهدف إلى الإصلاح والهداية والإرشاد وتحقيق كلمة التوحيد، كما يعمل على نشر الدعوة الإسلامية بما يقوم عليه من صد لمقولات المفترين وكيد الكائدين كما يعمل على (محاورة العقول لإثبات دين التوحيد وإثبات النبوة وإثبات المعاد) (29) فالحوار منهج من مناهج القصة القرآنية التي لا يقتصر هدفها على الإبداع الفني وغنما تتجاوزه إلى (تثبيت العقيدة وإثبات الوحي والرسالة وغرس الإيمان في قلوب الناس وبيان ان وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة وأن استقبال قومهم لهم متشابه) (30).

لذا فإن الكلام عن الحوار هو ضرب من ضروب الوقوف على لون من إعجاز القرآن يجمع بين الإعجاز البياني والإعجاز الذوقي (الوجداني) ذاك الإعجاز الذي أشار عليه سبحانه وتعالى بقوله : فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصّدور" (الحج: 46) ولكي لا تعمى القلوب وتستضيء بنور الإيمان فلابد لها من عمل وعملها الذكر قال تعالى : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب" (الرعد: 28)، فإذا كان الأمر كذلك صدق فيهم قوله تعالى :"والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا إنّك على كلّ شيء قدير" (التحريم: 8).

لذلك تحسن الإشارة على تتبع ذلك في كتب التفسير وأخص منها :

1- الكشاف : للزمخشري

2- مفاتيح الغيب : للرازي

3- التحرير والتنوير : لابن عاشور

4- تفسير القرآن الكريم : لمحيي الدين بن عربي

4- مواطن ورود الحوار في القرآن :

لم ترد كلمة الحوار في القرآن إلا في ثلاثة مواطن وتحديدا في سورتين وهما :

أ- سورة الكهف : قال تعالى :"فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا " (الكهف 34)، وتتكرر كلمة الحوار في نفس السورة فقال تعالى :"قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا" (الكهف 37)، واستمر الحوار إلى الآية 44 (فهو حوار يبدو في ظاهرة التخاصم الشديد بين أخوين أحدهما كان مؤمنا سخيا والآخر كان كافرا شحيحا، فهي خصومة شديدة ولكنها تمثل اختلافا في الدين والمنهج) (31).

ب- في سورة المجادلة قال تعالى : "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير" (المجادلة: 1).

فقد يلتبس الأمر لأول وهلة هل هناك خصومة أم حوار ؟ والواقع أن (حديث المرأة عن زوجها كان خصومة، ولذلك كان التعبير بالمجادلة، ولكن حديثها مع الرسول صلى الله عليه وسلم كان مراجعة في الكلام،

ولذلك كان تعبيره بالمحاورة) (32) وينتهي الحوار بحكم شرعي يتعلق بكفارة الظهار وهو ما دلت عليه الآيات الثلاثة الموالية للآية السابقة (2-4) وسأتناول تفسير هذه الآيات في نهاية هذا البحث مع ملاحظة انه لا يمكن تناول الحوار من خلال ثلاث آيات لأن ذلك قد يجعلنا نقف عند الدلالة اللفظية ولذا يتحتم النظر إلى الحوار من خلال ثلاث آيات لأن ذلك قد يجعلنا نقف عند الدلالة اللفظية ولذا يتحتم النظر إلى الحوار من خلال الألفاظ الدالة عليه من حيث المفاهيم القريبة منه مثل الحجاج استيحاء من قصص القرآن واعتمادا على أنواع الحوار خاصة إذا وقع الاعتماد على ألفاظ متقاربة يعاضد بعضها بعضا وقع ذكرها في القرآن الكريم، فهي وإن لم تكن واحدة في المفهوم فهي تتقارب وتوسّع مجالات الحوار مثل المقاولة والمحاجة وما يفيد معنى المناظرة والمباحثة والمناقشة مما يستفاد من مجالات الحوار وأنواعه، خاصة وأن القرآن الكريم (نهج في حواره مع الخصوم والمعاندين والمنكرين والمترددين الشاكين مناهج متعددة، وجادلهم بالمنع والنقض والمعارضة) (33).

فالجدل يأتي في الدرجة القصوى من الحوار باعتبار كونه يراد منه إفراغ الخصم ومغالبته بفكرة مسبقة ومنهج المعارض المبكت. لذلك نجد أبا حامد الغزالي يجعل الجدل ضمن كتاب آفات اللسان وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات في كتاب (إحياء علوم الدين) حيث استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم :"ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا

أوتوا الجدل" (34) ويقول الإمام مالك بن أنس : "ليس هذا الجدل في الدين من شيء" (35).

وعليه فإننا قد نجد ضمن أنواع الحوار آيات فيها الجدال لكننا لا نتوقف عند مفهومية اللفظ وإنما نربط ذلك بأساليب الحوار وأهدافه مع ملاحظة انه لم ترد كلمة الحوار في السنة النبوية الصحيحة إلا في موطن واحد يفيد المجادلة : "عن أبي الدرداء قال: كانت بين ابي بكر وعمر محاورة فأغضب أبو بكر عمر ... الحديث" (36).

5- المفسر وتحاوره مع القرآن :

عندما نتمعن في القرآن الكريم نجد فيه آيات تدعو الناس إلى التدبر والتفكّر من ذلك مثلا قوله تعالى : "أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها" (محمد: مدنية:24)، وقوله تعالى :"كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب" (ص:مكية:29) ومعنى الآية : (أنزلنا هذا الكتاب النافع للناس، المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دينهم ودنياهم الجامع لوجوه المصالح ليتدبرها أولوا الحجا (العقول) الذين أنار الله بصائرهم فاهتدوا بهديه، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه، وتذكروا مواعظه وزواجره واعتبروا بمن قبلهم فارعووا عن مخالفته، حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين) (37) فالتدبر في القرآن الكريم هو الاستفادة بما يحث عليه من خلق وعمل لا بالتوقف أمام تلاوته فقط، وهو ما يؤكده قوله تعالى :"أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" (النساء : مدنية:81)فتدبر

آيات القرآن يقتضي إعمال العقل لفهم مقاصده التي لا يدركها إلا الراسخون في العلم والذين جمعوا بين العلم والإيمان، والعمل بما علموا قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : (وتدبر القرآن الوارد في الآية يحتمل معنيين : أحدهما أن يتأملوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنه من عند الله وأن الذي جاء به صادق، وسياق هذه الآية يرجح حمل التدبر هنا على المعنى الأول) (38).

فالقرآن يحث المخاطبين، العلماء خاصة، على إعمال النظر والفكر لإدراك المناط، قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه (من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن) (39) أي ليفكر في معانيه وتفسيره وقراءته (40).

والتفقه في الدين لا يكون إلا باعتماد ذلك، وما دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس غلا طلب من الله للتوفيق في التفقه في الدين عن طريق التمعن في آيات القرآن قال صلى الله عليه وسلم : "اللهم فقه في الدين" (41) وفي رواية للإمام مسلم :"اللهم فقه" (42)

وأورد الزركشي في البرهان قوله صلى الله عليه وسلم : "اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل" (43).

فالقرآن كما قال علي كرم الله وجهه (القرآن حمّال أوجه) (44) ومادام الشأن كذلك فلا محيص من استعمال العقل في آيات القرآن، وطلب التوفيق من الله حتى لا ننأى عن مقاصده وأهدافه.

ومن ثم فإن المفسر يجري حوارا مع القرآن، وإذا ما استقرأنا تاريخ نزول الوحي وجدنا كثيرا من آياته نزلت جوابا عن سؤال أو جوابا عن حوار مثل قوله تعالى :"ويسألونك عن الأهلة قلَ هي مواقيت للناس والحج" (البقرة : 189) ومثل قوله تعالى : "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير" (البقرة : 219)، ومثل قوله تعالى :"يسألونك عن المحيض قل هو أذى (البقرة :222) ومثل قوله :"يسألونك ماذا احلّ لهم قل أحلّ لكم الطيبات وما علّمتم من الجوارح" (المائدة : 4) ومثل قوله تعالى :"يسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا" (الكهف : 83). وإذا تمعنا تنزّلات آيات القرآن ألفيناها تتبّع في التنزيل مثل قوله تعالى :"ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهنّ" (النساء: 127) ومثل قوله تعالى :"يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك وليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد" (النساء : 176).

كما أن أسلوب الحوار في القرآن لم يقتصر على الآيات التي تتضمن حكما أو تقريرا، بل إنه اتبع في آيات لا يستقيم معناها إلا ان تقرأ وحدة واحدة، ومع ذلك فقد نزلت هذه الآيات دفعة ثم دفعة، من ذلك مثلا أنه لما نزلت الآية : "إنكم وما تعبدون من دون الله حصب (45) جهنّم انتم لها واردون" (الأنبياء : 98).

دخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المسجد الحرام وصناديد قريش حول الكعبة فجلس إليهم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم حتى أفحمه ثم تلا عليهم الآية، فأقبل عبد الله بن الزّبعري فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم ؟ فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله، فقال : "اما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعري : "أأنت قلت ذلك ؟ قال : نعم، قال: خصمتك وربّ الكعبة، أليس اليهود عبدوا عزيزا والنصارى عبدوا المسيح،وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : بل هم عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك" (46) فأنزل الله قوله :"إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى اولئك عنها مبعدون" (الأنبياء:101) فلم يدرك معنى الآية (98) إلا بعد نزول الآية (101)، وهذا نصل غليه بمعرفة أسباب النزول (فهذه الآية الأخيرة جزء متمم للآية الأولى واستثناء من حكم فيها لا يستقيم معناه وحده دون ربط بالحكم الأصلي، ومع ذلك لم تجئ مع هذا الحكم في تنزيل واحد... وإنما جاءت بعدما أثير ما استلزم نزولها (47) والذي يستفاد (أن آيات القرآن، ولأمر مقصود، لا تحمل على معنى العفوية، وغنما راعت أحوال المخاطبين، فاتبعت في النزول أسلوب التحاور بين السائل والمسؤول، والتجاوب بين الوقائع والأحكام ولتناوب بين القاعدة والاستثناء) (48).

فإذا كانت آيات القرآن حثت على الحوار وراعت أحوال المخاطبين فنزلت آياته إثر آيات لتجيب المخاطبين قصد تأهيلهم وألفات أنظارهم عن طريق التفكر والتساؤل، فإن المفسر يتحتم عليه أن يتحاور مع النص القرآني ويجري مع آياته وسوره حوارا ليدرك المقاصد الإلهية التي

تضمنها القرآن المعجزة الخالدة، مع ملاحظة ان القرآن يأتي ربه يوم القيامة بكرا كأنه لم يفسّر بعد وصدق الله في قوله :"ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم" (لقمان: 27).

وليس معنى هذا أن يستسلم المفسر لمنطق الآيات بل عليه ان يسعى متحاورا معها للوقوف على المعاني المستترة وراء الألفاظ ليضيف إلى بصره بصرا وإلى علمه علما وإلى معارفه نورا وهدى، الم يحشر سبحانه وتعالى يوم القيامة من اعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى" (طه : 124-126)، وقد فسر الآية الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قائلا : "وجملة قال رب لم حشرتني أعمى "مستأنفة استئنافا ابتدائيا، وجملة" قال كذلك أتتك" الخ... واقعة في طريق المحاورة فلذلك فصلت و لم تعطف ... والإشارة في (كذلك أتتك آياتنا) راجعة على العمى المضمّن في قوله (لم حشرتني أعمى) أي مثل ذكر الحال التي تساءلت عن سببها نسيت آياتنا حين أتتك وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تدعى إليه فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاء وفاقا) (49).

فالتحاور مع النص القرآني يزيد المؤمنين إيمانا، ويهدي المكذبين إلى الإسلام، فهو عبارة عن مقاربة بين الوحي والعقل، أو هو حركة فكرية إنسانية تبحث عن استنارة واستبصار من كلام الله تعالى، قصد المزيد

من المعرفة والعلم والهداية والإدراك (فليس الحوار عمل برّ وإحسان، إنه يحمل في طياته الأمل الكبير) (50).

أ- أنواع الحوار :

إن الحوار بحسب الإطلاق والشمولية له مجالات متعددة وميادين متنوعة يمكن ضبطها في الأنواع التالية :

1- حوار بين الله وعباده وملائكته (البقرة : 29-32)

2- حوار بين الله وإبليس (الأعراف : 13 والحجر : 23 وص :75)

3- حوار بين الله والرسل (طه : 9-48)

4- حوار بين الرسول والله (البقرة : 260)

5- حوار بين الله والإنسان (الأعراف : 10-11)

6- حوار بين الإنسان وربه (يوسف:33 والقصص: 24) (51)

7- حوار بين الإنسان ونفسه (البقرة: 259 والأنبياء : 57)

8- حوار بين الملائكة والرسول (ص:20-23) و(هود:69-83:حوار الملائكة مع لوط وإبراهيم)

9- حوار بين الإنسان والإنسان (الكهف:34-37 والنمل:29 المائدة:27)

10- حوار بين العبد الصالح وموسى (الكهف:60-82)

11- حوار بين الإنسان والرسول (المجادلة:1) وكذلك العكس و(طه:49-76)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

12- حوار بين الرسل وأقوامهم (المائدة: 22-69 وآل عمران:65 (حوار محمد صلّى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب) والأعراف : 59-99 وهود: 25-48 (قصة طوفان) 54-56 والمؤمنون: 23-25 (نوح مع قومه) والشعراء:63-83 (إبراهيم مع أبيه وقومه) والنمل :38-44) الأنبياء (52-56) فأولو العزم من الرسل وهم : (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلّى الله عليه وسلّم استيحاء من قوله تعالى : فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل" (الأحقاف : 35) قال القرطبي (وهم أصحاب الشرائع) (52).

13- حوار الجن فيما بينهم (الجن : 1-15)

14- حوار بين الرسول سليمان والحيوان (النمل :20-28)

15- الحوار في يوم القيامة (أ- الحوار بين أصحاب النار في النار (الأعراف: 38-39)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب- الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار (الأعراف : 44-59) (53) جـ - حوار الشيطان مع الضعفاء والذين استكبروا (إبراهيم : 20-22) .

وقد نتساءل كيف حاور الله الشيطان ؟ هل بواسطة أم بدون واسطة؟ وكيف تحاور سليمان عليه السلام مع الهدهد ؟ هل هو تخييل أو تمثيل ؟ أو تعبير بلسان الحال ؟ ، يقول الدكتور التهامي نقرة في هذا الصدد : (إن محاولة الإجابة عن مثل هذه التساؤلات تفضي إلى التحكّم ، والإيمان يدعونا إلى التسليم بأن ما جاء في هذا الحوار حقّ

دون البحث عن كيفيته، لكن ما يجدر اعتباره هنا أن محتوى هذا الحوار مهما كان مصدره لم يخرج عن منطق البشر، لتطمئن إليه العقول وتستجيب له المشاعر (54) لان الحوار ما كان لذاته وإنما لإثبات رسالة الرسل، وتوجيه الناس نحو إله واحد عن طريق الإعجاز والتحدي بواسطة المحاورة حتى يحصل الإقناع والإيمان والتسليم.

أما موضوعات الحوار في القصص القرآني (فهي الموضوعات الدينية في الغالب، وهي الموضوعات التي قام فيها بين الأنبياء وأقوامهم جدال عنيف من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة وإحداث الأمور والمعجزات الخارقة للدلالة على النبوة وغيرها (55).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهـــوامش :

1- الدكتور التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ص 411.

2- نفس المرجع ونفس الصفحة .

3- محمد إسماعيل إبراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص 150.

4- ابن منظور : لسان العرب 218/4

5- الفيروزبادي : القاموس المحيط المجلد الثاني فصل الحاء باب الراء ص 16.

6- الدكتور التهامي نقرة : الجدل والحوار في القرآن الكريم مجلة الهداية العدد الثالث السنة التاسعة ص 22.

7- ابن منظور : لسان العرب11/ 104.

8- نفس المرجع ص 105.

9- الترمذي : السنن المجلد الخامس باب 45 ص 379.

10- الزوزني : شرح المعلقات السبع ص 23.

11- الجرجاني المعروف بالسيد الشريف : التعريفات ص 59.

12- أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين المجلد الثاني ص 101.

13- نفس المصدر ونفس الصفحة .

14- ناصر الدين الحنبلي : استخراج الجدل من القرآن الكريم نقلا عن الجدل في القرآن الكريم للدكتور محمد التونمي ص 25.

15- الدكتور محمد التومي : الجدل في القرآن الكريم ص 26 (باختصار).

16- يقال فاقهه زفقهه كنصره : يقال فاقهه وفقهه كنصره : أي باحثه فغلبه في العلم انظر الفيروزبادي : بصائر ذوي التمييز المجلد الرابع ص 210.

17- محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج 1 كتاب 1 (م) 10 ص 118.

18- الزوزني : شرح المعلقات السبع ص 112-113

19- محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج 1 ك 1 (م) 10 ص 119.

20- معجم الفاظ القرآن الكريم المجلد الأول ص 249-250 (مجمع اللغة العربية) مجلدان .

21- توفيق محمد سبع : قيم حضارية في القرآن الكريم الجزء الثاني ص 236.

22- أحمد زكي تفاحة : نماذج تربوية من القرآن ص 50.

23- الدكتور محمد أحمد خلف الله الفن القصصي في القرآن الكريم الباب الثاني الفصل الخامس ص 128.

24- الدكتور طه حسين : مرآة الإسلام ص 150-151 ط 4 مصر 1970.

25- الدكتور التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن ص 92.

26- المرجع السابق ص 411.

27- محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج 1 ك 1 ص 121.

28- السيد عبد الحافظ عبد ربه : بحوث في قصص القرآن ص 78-80 طبعة 1 بيروت 1972.

29- الدكتور الهادي حمو : مواقف الحجاج والجدل في القرآن ص 241 (مرقون بمكتبة جامعة االزيتونة تحت عدد 12).

30- محمود السيد حسن : روائع الإعجاز في القصص القرآني ص 62-64 بتصرف ط بالأسكندرية 1982.

31- عبد الحليم حنفي : أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ص 13.

32- عبد الحليم حنفي : أسلوب المحاورة في القرآن الكريم ص 13.

33- زاهر بن عواض الألمعي : مناهج الجدل في القرآن الكريم ص 67.

34- الترمذي : السنن مجلد 5 كتاب تفسير القرآن باب 45 ص 378.

35- أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين المجلد الثالث ص 101.

36- البخاري: الجامع الصحيح ج 3 كتاب تفسير القرآن ص 82.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

37- أحمد مصطفى المراغي : التفسير 23 / 116.

38- محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج 5 ص 137.

39- بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن المجلد الثاني ص 154.

40- ابن الأثير : النهاية : فصل ثور نقلا عن البرهان ص 154 (هـ):1

41- البخاري : الجامع الصحيح كتاب الوضوء1/28.

42- الإمام مسلم : الصحيح مجلد 4 ج 7 باب فضائل عبد الله بن عباس ص 158.

43- الزركشي : البرهان في علوم القرآن 1/ 161.

44- المستشار محمد سعيد العشماوي : معالم الإسلام ص 231.

45- الحصب : ما يرمى به في النار لاشتعالها كحطب وغيره : لسان العرب م 1 ص 320.

46- أبو الحسن النسابوري : أسباب النزول ص 206.

47- المستشار محمد سعيد العشماوي : حصاد العقل ص 66.

48- المستشار محمد سعيد العشماوي : حصاد العقل ص 66.

49- محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير 16/332

50- من اجل حوار إسلامي مسيحي ص 141.

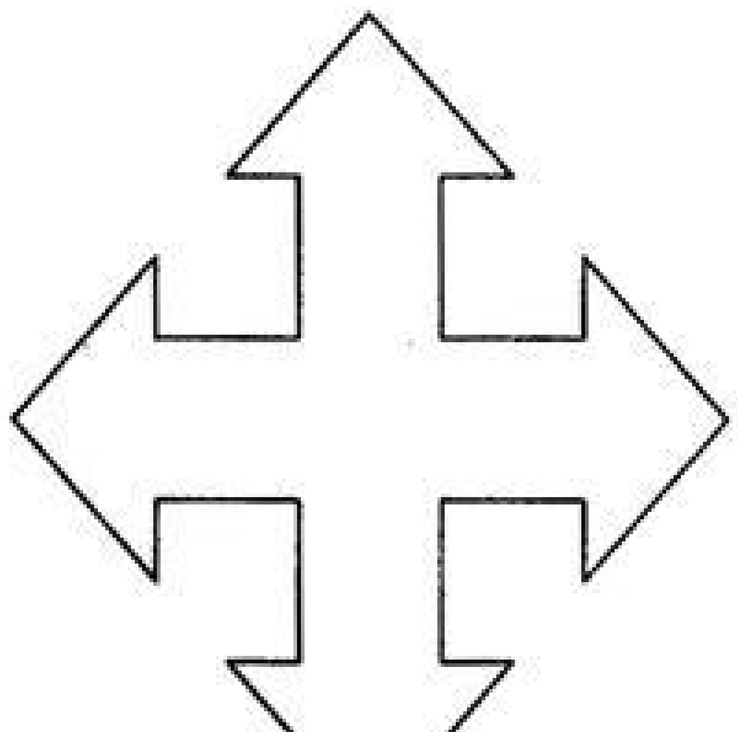
51- عبد الهادي عبد الرحمن : سلطة النص ص 81-96.

52- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن 16/220.

53- وقد أشار الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى ذلك في المقدمة السابعة من مقدمات التحرير والتنوير 1/66.

54- الدكتور التهامي نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن الكريم ص 414.

55- الدكتور محمد أحمد خلف الله : الفن القصصي في القرآن الكريم : الباب الثاني الفصل الخامس ص 128.



مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي

بقلم : الأستاذ عبد الكريم العطياوي

التمهيد :

من الطبيعي أن المرأة كالرجل، في احتياجهما إلى المعرفة والتكوين المستمرّ، باعتبارهما لبنة أساسية في تشييد صرح المجتمع الإنساني، إلا أن مركزها ودورها يفوق — في نظرنا- دور الرجل بكثير، بدليل قول شاعرنا العربي :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

بهذا الدور الهام، يحق لنا أن نتساءل عن دورها في بناء الأسرة- هل وجدت عناية وتشجيعا من قبل بعض المجتمعات الإنسانية؟- وهل نسج الإسلام في معاملته لها نسج بعض المجتمعات القديمة ؟- لماذا وقف الإسلام موقفا حازما تجاه تلك المجتمعات القديمة، التي عاملت المرأة معاملة قاسية ؟ وعلام يدل ذلك ؟ ألم يدل ذلك على موقف يعطي للمرأة حقها وتقديرها وحريتها ومكانتها- فيم يتمثل ذلك ؟ كيف نظر القرآن إلى بناء العلاقة الزوجية ؟ وبماذا أوصى الزوجين أثناء حياتهما الزوجية، إن شب بينهما — لا قدّر الله- سوء تفاهم ؟ وهل وقف الإسلام من قضية الميراث وتعدّد الزوجات موقـــف سلبيا أم

إيجابيا ؟ وهل يدل ذلك على تمتعها بحقوقها الشخصية ؟

1- موقف التربية من المرأة :

كل ذلك يجعلنا نقول، أن المرأة باتقان أهل الحل والعقد كان لها دور كبير في بناء الأسرة، إذا وقع إعدادها وتربيتها تربية جامعة لكل مكوناتها النفسية والوجدانية والعقلية والاجتماعية والواقعية والدينية بصفة متساوية، إذ تعطي التربية لكل واحدة من هذه المكونات حقها.

بهذه التركيبة المزجية أعتقد أنها ستخرج للوجود الواقعي أبناء وبناتا صالحين لخدمة مجتمعهم.

هذه غاية أهل الحل والعقد التي أشرت إليها قبل حين لكن هل وجدت المرأة عناية ومساندة من قبل بعض المجتمعات الإنسانية القديمة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2- موقف بعض المجتمعات القديمة من المرأة :

بالطبع، أن بعض المجتمعات القديمة، قد عاملت المرأة معاملة قاسية، يندى لها الجبين، حيث اعتبرتها رجسا من عمل الشيطان، اذكر البعض منهم على سبيل المثال لا الحصر .

أ- **اليونانيون** : أكثر الأمم حضارة آنذاك : جعلوا المرأة من سقط المتاع تباع وتشترى في الأسواق وقد سموها رجسا من عمل الشيطان.

ب- **وجاء في شرائع الهند** : أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة .

ج- وجاء في سفر الجامعة من كتاب التوراة ، أن المرأة أمرّ من الموت، لأنها شباك، وقلبها إشراك، ويداها قيود.

د- وفي روما اجتمع مجمع كبير، وقرر أنها كائن لا نفس له، لا ترث الحياة الأخروية، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم، وجعلوا على فمها قفلا من حديد .

هـ- وفي فرنسا ، عقد سنة 586م اجتماع في بعض ولاياتها، دار فيه البحث عن المرأة، أتعد إنسانا أم غير إنسان، وكان نهاية البحث أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل.

و- وفي أنكلترا، فقد أصدر الملك هنري الثامن أمرا بتحريم مطالعة الكتاب المقدّس على النساء، كما أن النساء كنّ طبق القانون الأنكليزي العام حوالي سنة 1850م غير معدودات من المواطنين، ولم يكن لهن حقوق شخصية ولا حتى في تملك ملابسهن، ولا في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين .

ي- وفي بلاد العرب، وقبل بعثة محمد صلّى الله عليه وسلم، قد كانت المرأة ممتهنة في كثير من أحوالها. (1) هذه المواقف، إن دلت على شيء، فإنما تدل على اتحادها في نعت المرأة، بأنها رجس وشر، ومخلوقة لخدمة الرجل، لا تستحق شيئا من الحرية والتقدير، شأنها كشأن الحيوان الأعجم. لماذا ؟ لأنها شباك قلبها إشراك ويداها قيود، وميلادها عار،

يجب وأدها للقضاء عليها.

3- رد الإسلام لها الاعتبار :

لكن الإسلام، قام بتحريرها مما وقع عليها من حيف وظلم، ورفعها إلى مكانة عالية، لم تصل إليها في آخر تطورات المدنية، وجعلها إنسانا مكرّما كما عاملها محمد صلى الله عليه وسلم في تعليمها ، إذ خصص لها وقتا طويلا، وقدّم لهن دروسا خاصة بهن، وأجابهن عن القضايا المطروحة عليه منهن، كما كلف بعض نسائه ببعض الأجوبة التي يمنعه الحياء و لم يكن بينه وبين صحابته حاجب. (2).

كما أمر الإسلام أيضا المرأة والرجل بتكاليف العقيدة وفضائل الأخلاق قال الله تعالى :"إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجرا عظيما " الأحزاب 35.

إزاء هذا نرى مسؤولية المرأة مستقلة تماما عن مسؤولية الرجل، فلا يؤثر عليها – إن كانت صالحة- فساد الرجل وكفره، ولا بنفعها، إن كانت طالحة صلاح الرجل وتقواه، قال الله تعالى : "ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا

صالحين فخانتهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجّني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين" التحريم 10-11.

وساوى بينها وبين الرجل في حق المبايعة، فقد كان النبي يبايع الرجال على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة، وكذلك بايع النساء كما أمر الله (3) : "يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه وبين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم" الممتحنة 12.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأقرّ لها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالأعمال الصالحة وهذا برهان واضح في إعطاء المرأة حقها من النشاط الاجتماعي" (4) قال تعالى : "والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إنّ الله عزيز حكيم" التوبة 71.

نستنتج مما تقدّم، أنّ الإسلام ساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات، وعاملها مثل الرجل في كل الأنشطة الاجتماعية، ووقف مندّدا بمواقف المجتمعات القديمة تجاه المرأة، معلنا بصراحة أنهم كفرة

منحرفون استعباديون لإنسان مخلوق مثلهم، خلقه الله تعالى لحكمة التوالد، واستمرار الإنسان لتعمير هذه الأرض بواسطة الزواج.

4- موقف المجتمع الإسلامي من المرأة :

فكانت المرأة في المجتمع الإسلامي، تتمتع بقسط وافر من الحرية، إذ كانت في عهد الخلفاء الراشدين تختلط بالجمهور وتستمع خطب الخلفاء وتحضر المحاضرات التي كان يلقيها علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس. شأنها كشأن الرجل تماما حيث اشتهرت عائشة ام المؤمنين بالفقه ورواية الحديث والفتيا والأدب والتاريخ والنسب وقيادة الجيش يوم الجمل كما اشتهرت أيضا عكرشة بنت الأطرش في الحرب بين علي ومعاوية واسماء بنت أبي بكر ام عبد الله بن الزبير قد اشتهرت برواية الحديث والكرم والشجاعة المتمثلة في الموقف التالي : حينما سار الحجاج بن يوسف إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق، وأرغم أهلها على طلب الأمان، وانضم إليه بعض أتباع ابن الزبير وغيرهم من ذوي قرباه وبقي عبد الله بن الزبير في عدد قليل من أنصاره ولما أيقن أنه مقتول لا محالة، دخل على أمه أسماء فقال : يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ! فما رأيك ؟ فقالت : " أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية يلعبون بها وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك، وإن قلت كنت على حق قلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين، كم خلدوك في الدنيا؟ القتل أحسن، فقال يا أمّاه ! أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني فقالت يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها، فامض على بصيرتكن واستعن بالله، فقبّل رأسها، وقال هذا رأيي، فطفقت أمه تدعو له وتشجعه" (5).

وقد نسج على منوالها، جمع كبير من النساء أذكر البعض منهن على سبيل المثال لا الحصر كأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك، والسيدة سكينة بنت الحسن بن علي والسيدة عائشة بنت طلحة بن عبد الله التي نبغت في الأدب وأيام العرب والنحوم.

فعلام يدل هذا ؟ يدل هذا على أن الإسلام كان إلى جانب المرأة، حيث منحها حقها وحريتها وكرامتها وذاتيتها ومكانتها في المجتمع، مثلها مثل الرجل ليثبت أنها إنسانة تستحق التكريم لأنها سبب في استمرار الجنس البشري، بهذا كان الإسلام يختلف تماما عن المجتمعات الهمجية القديمة التي كانت تسوم المرأة سوء العذاب.

5- موقف القرآن من بناء العلاقة الزوجية :

فالإسلام سوّى بين المرأة والرجل في جميع الحقوق المدنية، فأباح للمرأة مادامت تتصرف في مالها أن تتزوج بنفسها إن كانت بالغة، وأن توكّل غيرها في زواجها إن كانت دون سن البلوغ، دون اعتراض عليها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأمر وإذنها السكوت" كما طبقه محمد صلى الله عليه وسلم حينما عرض رغبة علي على فاطمة فسكتت فنفذ عقد الزواج بينهما.

والزواج في القرآن : "هو الزواج الإنساني في وضعه الصحيح من وجهة المجتمع- ومن جهة الأفراد- فهو واجب اجتماعي وسكن نفساني، وسبيل مودة ورحمة بين الرجل والمرأة، فكان خطاب القرآن في أمر الزواج موجها إلى الأفراد والأمة لتيسيره قال الله تعالى : "وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم أن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم" النور 32.

فهذه الآية خطاب للأولياء، وتعم غيرهم مطلقا بأن يزوجوا العزّاب من النساء والرجال، وأن لا يكون فقرهم داعيا للحيلولة دون تزويجهم لأن الله قد تكفل بإغنائهم من فضله " (6).

والزواج في الإسلام عهد وميثاق بين الزوجين، يجب عليهما المحافظة عليه من سوء التفاهم والتباين الذي يؤدي في النهاية إلى الطلاق المبغوض كما.

أ- الطلاق في الإسلام :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ابغض الحلال إلى الله الطلاق" لأنه ضرر وإضرار، كما نهى الرسول عليه الصلاة والسلام أيضا عن ذلك في قوله : "لا ضرر ولا ضرار" ويروى انه كره أن يطلق زيد زوجته زينب بنت جحش لأنها كانت تكثر من إيذائه والاستخفاف به وطالما كان يقول له : "امسك عليك زوجك واتق الله".

بهذا يجب معالجة الخلاف بحكمين من أهله وأهلها كما قال الله تعالى: "وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله، وحكما من أهلها إن يريد إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا" النساء 35.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكما أمر الرجل بالإحسان إلى زوجته، ومعاملته إيّاها بالتي هي أحسن كقوله تعالى : "وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا، ويجعل الله فيه خيرا كثيرا" النساء 19.

وإن تعذّر ذلك الإصلاح بين الزوجين، وساء سوء التفاهم بينهما من غير قبل أن يستفحل ويصبح شرا مستطيرا على المجتمع. عندئذ نضطر إلى الطلاق كرها لا اختيارا.

لم يكتف الإسلام بذلك، بل جعل للمرأة الحق في المطالبة بالتفرقة بينها وبين زوجها إذا وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك قال تعالى : "فإن

خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيـــما افتدت به" البقرة 229.

نستنتج من هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بقضية الطلاق أن الإسلام أعطى للمرأة الحرية المعتدلة في فك العصمة بينها وبين زوجها بالتي هي أحسن ولم يفرض عليها الطلاق جبرا.

كما لا يفوتني في هذا المجال أن نعرض موقف مشروعي أوروبا اليوم مما عابوه على الإسلام بالأمس في مشروعية الطلاق.

فها هم يلتجئون إليه مضطرين، بعد أن ظهرت لهم حكمته ووجهة نظر الإسلام في تشريعه كقول بعض فقهائهم : "الطلاق شر، ولكنه شر لابد منه لصلاح المجتمع لأنه العلاج الوحيد لشر قد يكون أكثر منه بلاء... وليس الطلاق هو الذي يفسد الحياة الزوجية، ويحل عراها المقدسة، وإنما هو سوء التفاهم الذي يقع بين الزوجين، ويعوق إحكام هذه العروة، ويدك صرحها" (7)

بهذا الاعتراف لمشروعية الطلاق في الإسلام دليل قاطع على صحة النظرية الإسلامية التي تعلو كل نظرية موضوعية لأنها نظرية واقعية وشاملة بينما النظرية الموضوعية جزئية.

ب- الميراث في الإسلام :

كما وقف الإسلام من قضية الميراث موقفا علميا إذ جعل للمرأة

نصف نصيب الرجل باعتبارها مكفولة بالرجل في معظم أدوار حياتها إذ يجب عليه شرعا أن ينفق عليها إذن فأين التضييق عليها ؟ وأين هضم حقوقها ؟ مع هذه الكفالة التي يتحملها الرجل وحده في الحياة الزوجية، هذا ردّ منطقي – تقبله العقول السليمة- على الذين يعترضون على قسمة المواريث.

ج- تعدد الزوجات في الإسلام :

أما موقف الإسلام من قضية تعدد الزوجات، يرجع إلى الأسباب التالية :

1- الإكثار من النسل في البيئات التي تحتاج إلى كثرة الأيدي للحرب والعمل في الزراعة

2- لتعويض وتزويج النساء اللاتي فقدن أزواجهن في الحرب

3- لتلافي زيادة عدد البنات اللاتي بلغن سن الزواج و لم يتزوجن.

4- لمصلحة الزوجة العاقر أو المصابة بمرض إن تقتضي مصلحتها بقاءها مع زوجها.

لكن مع هذه الإجازة، بشرط، ليس من اليسير تحقيق تلك الأسباب على أكمل وجه وهو العدل بين الزوجات قال تعالى : "فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت إيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعدلوا " (8) النساء.

د- تمتعها بحقوقها الشخصية :

تتمثل فيما يلي، على سبيل المثال لا الحصر

1- في بناء الأسرة السليمة، باعتبار الأم مدرسة أساسية لتنشئة الأطفال تنشئة سليمة.

2- في حق المبايعة على السمع والطاعة، والقيام بحدود الشريعة

3- في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بالأعمال الصالحة.

4- في الولاية على المال وجميع العقود المدنية. إذ يحق لها أن تتصرف في مالها، وأن تبرم كل العقود من بيع وشراء وإيجار الخ ...

5- في النفقة عليها وعلى أولادها من زوجها ووليها وبيت مال المسلمين، إن كانت فقيرة، باعتبارها مكفولة من قرينها. إن دل ذلك على شيء فإنما يدل على رد منطقي على من يقول: "قد وقع عليها تضييق وهضم حقوقها في الميراث.

6- في اختلاطها بالرجل، في الثقافة والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة.

7- في الزواج إن كانت ثيبة، وفي إنابة وليها إن كانت دون سن البلوغ، بشرط سكوتها الذي يدل على موافقتها له.

8- في حق القيادة، كما لاحظنا ذلك في قيادة عائشة أم المؤمنين لجيش المسلمين.

9- في حق المطالبة بالتفرقة بينها وبين زوجها، إن دعت الضرورة إلى

ذلك.

بناء على هذا نقول أن المرأة في المجتمع الإسلامي، كانت مكرمة، ومتمتعة بجل حقوقها، نظرا لمكانتها في بناء الأسرة، واستمرار النوع على هذه الأرض.

الهوامش :

1- طبارة عفيف عبد الفتاح : روح الدين الإسلامي 353-357

2- الخطيب محمد عجاج/ السنة قبل التدوين 34-55

3- طبارة : عفيف عبد الفتاح : روح الدين الإسلامي 359

4- نفس المصدر السابق 359

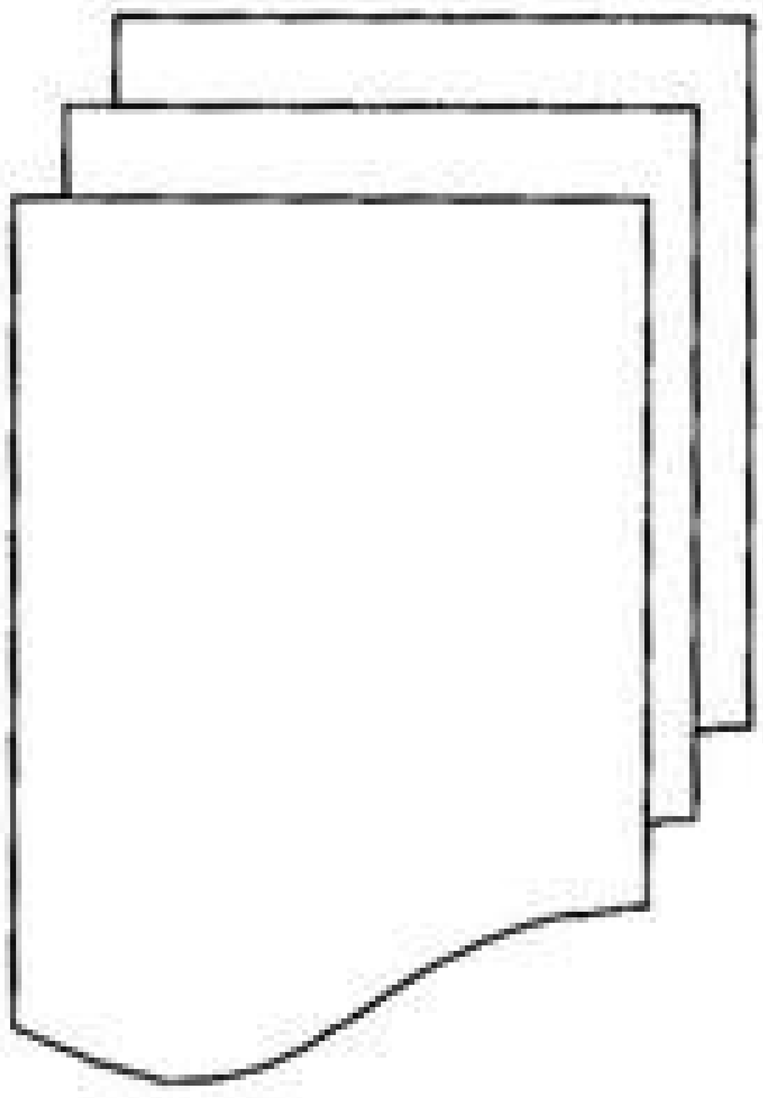
5- د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج 1/546-547

6- طبارة عفيف عبد الفتاح : روح الدين الإسلامي 361

7-نفس المصدر السابق 376-381

8- ذلك أدنى ألاّ تعدلوا : أي ذلك النظام أقرب إلى ألا تظلموا من العول وهو الزيادة ومجاوزة الحد وفسر الشافعي كلمة "ألا تعدلوا" بأن لا تكثر عيالكم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



الأخلاق في الإسلام

منزلتها والعوامل الملزمة بها

بقلم : عبد القادر الهاني

مما لا شك فيه أن مجتمعنا اليوم، حقق تقدما علميا كبيرا، ونهضة تكنولوجية بالغة الأثر في حياة الناس، من الضروري أن يستندا إلى جملة من القواعد الأخلاقية المتينة، باعتبارها الشرط الأساسي في قيام مجتمع متحضر حقا، نظيف، يستطاب فيه العيش كل الناس، وبدونه تنهار كل القيم. فيصبح العيش جحيما لا يطاق، وينتفي معه المعنى الكامل والحقيقي للأمة بالمفهوم الإسلامي، وبذلك مصداق قول الشاعر العربي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد دأب العلماء والمصلحون، وعموم المتأدبين، على التذكر بهذا البيت — الذي جرى على الألسن مجرى الأمثال- وذلك في معرض التأكيد على أهمية الأخلاق في البناء المحكم للأمم، وفي تواصل بقائها متينة البنيان صامدة أمام المحن، قائمة بدورها الحضاري، كل ذلك حال تمسكها بالأخلاق، واعتمادها في كل شؤون حياتها، حتى إذا تنكبت عنها وغيبتها عن ساحتها، فإن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مآلها- دون ريب- الضعف والانحلال، ونتيجتها – دون شك- الانهيار فالاندثار.

إن خير ما من شأنه أن يبرز أهمية الأخلاق في بناء المجتمع السليم هو قوله صلى الله عليه وسلّم : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" حيث لخص أهداف رسالته السامية- على سعتها وشمولها- في هدف رئيسي واحد هو : تتمة نشر الأخلاق وتأصيلها في المجتمع، ويبدو هذا واضحا في اعتماد صيغة الحصر المستفاد من الأداة : "إنما" فماهي الأسباب الذاتية، وماهي العوامل الموضوعية التي هيأت الأخلاق لتتبوأ هذه المنزلة الرفيعة من الرسالة المحمدية الشاملة، ومن الدين الإسلامي السمح بصفة أدق، فأهلتها أن تنال اهتمام الحكماء وتفوز بعناية الوعاظ والعلماء ؟!.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنه ليتسنى لنا الوقوف على كل ذلك لابدّ من تتبع الأخلاق الإسلامية في مصادرها ورصد العوامل الملزمة بها، وإن شئت قلت، العوامل التي من شأنها أن تحمل على ممارستها ومعاشرتها، دون الاكتفاء بمجرد الاقتناع الظاهري، المفضي بطبعه إلى التسليم اللفظي، دون ما تجاوز إلى ما هو أهم وأجدى، ونعني بذلك السلوك اليومي. إنه لإدراك هذا الغرض الكبير نستنجد بالقرآن العظيم. فنقرأ قوله تعالى : "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم

تشكرون"(سورة النحل آية 78.)

إن أول ما يلفت الانتباه عند النظر في هذه الآية الكريمة، هو تأكيدها أن الله عز وجل خلق الإنسان خاليا من كل علم، فاقدا لكل معرفة، كما أفادت أيضا أن الله سبحانه وتعالى زود الإنسان بالحواس- الظاهرة والباطنة- التالية : السمع والبصر والفؤاد، وهي الوسائل الأساسية المتفق عليها لتحصيل العلم وامتلاك المعرفة، سواء في ذلك التجريبية او الحسية وهي المتأتية من طريق الحواس ومن أهمها: السمع والبصر، أو المعرفة العقلية وطريقها العقل، أو المعرفة الحدسية وطريقها القلب، وقد استعمل القرآن لفظة واحدة للدلالة عليهما، وهي لفظة الأفئدة التي هي جمع لفؤاد و "هو في كلام العرب يطلق على ما به العلم والتفكير". ثم أفادت الآية- وهذا بيت القصيد- أن تزويد الإنسان بهذه الأدوات- بما يترتب عليها من حصول المعرفة- مؤد إلى شكر الله تعالى، وهذا مستفاد من المعنى الذي تؤديه لفظة "لعل" في القرآن الكريم خاصة، وهو معنى التعليل الذي تفيده "كي" او "لام التعليل" فيكون معنى الآية : والله خلقكم أيها الناس وليس لكم من العلم والمعرفة شيء، وقد اعطاكم السمع والبصر والفؤاد كي تشكروه. إن الشكر، هو قبل كل شيء وبعد كل شيء خلق كريم، إذ هو الثناء على من يستحق الثناء، والاعتراف بالفضل لأهل الفضل، وكلاهما من صميم الأخلاق،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التي هي في الإسلام- بحسب ما مرّ بنا- نتيجة للمعرفة ومترتبة عليها، وقد تجسمت في نمط من السلوك ميز شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وشخصية أصحابه الميامين وكل من اهتدى بهديهم من التابعين.

كل ذلك يسمح لنا أن نقرر أن الأخلاق في الإسلام، إن هي إلا تصرف سوي وسلوك مرضي مترتب عن المعرفة الحاصلة من طرقها المعلومة (العقل، الحواس الظاهرة والباطنة)، وإن موقعها منه، إنما هو موقع الكل من الكل وموقع الأصل الذي يتحقق به- وليس بغيره- الفرع. وهذا يعني أن الأخلاق عنصر أساسي ومقوم من مقومات الإسلام بها تكتمل صورته وفي غيابها ينتفي حضوره.

أما عن الجزء الثاني من هذا المبحث، وأعني به: العوامل الملزمة فنشير إلى أن أولاها يتمثل في هذه العلاقة العضوية بينها – أي الأخلاق- وبين مصادرها التي هي المعرفة المكون الأول وأكاد أقول : والأخير، لماهية الإنسان وحقيقته الوجودية، وشخصيته المميزة له عمن سواه في هذا الكون، وإنه ليبدو لنا هذا الربط المحكم بين الأخلاق كقيمة ذاتية والمعرفة باعتبارها ميزة الإنسان وخاصيته المتفردة في قوله تعالى :

" يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن، ولا تلمزوا

أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون" (سورة الحجرات آية 49).

في هذه الآية الكريمة يستوقفنا قوله تعالى : ولا تلمزوا أنفسكم، إذ المعنى، لا يلمز بعضكم بعضا، إن القرآن لم يسترسل في تعداد النواحي المتعددة في هذه الآية، من سخرية وتنابز على نفس النمط، بل استعمل التنوع في الأسلوب، حيث نهى أن يلمز المؤمن نفسه وقصد غيره، على اعتبار أن لمز المؤمن لأخيه المؤمن هو في حقيقة الأمر لمز لنفسه ضرورة عن الناس خلق واحد.

وهذا المعنى عبر عنه كثير من المفسرين الائمة من أمثال القرطبي وسيد قطب، ومحمد الطاهر بن عاشور.

جاء في تفسير القرطبي (المجلد 8 جزء 15، ص 337) ما نصه : "وهذه الآية مثل قوله تعالى : "ولا تقتلوا أنفسكم" أي لا يقتل بعضكم بعضا لأن المؤمنين كنفس واحدة. فكأنه يقتل أخاه، قاتل نفسه".

ويقول سيد قطب في معرض تفسير نفس الآية : "ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإيماء، بل يستحيش عاطفة الأخوة الإيمانية، وبذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة، من يلمزها فقد لمزها "ولا تلمزوا أنفسكم" واللمز: العيب ولكن للفظة جرسا وظلا، فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية".

أما فضيلة الإمام محمد الطاهر بن عاشور فإنه يقول : "ومعنى : لا تلمزوا أنفسكم، لا يلمز بعضكم بعضا، فنزّل البعض الملموز نفسا للامزه لتقرز معنى الأخوّة، وقد تقوم نظيره عند قوله : "ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم" في سورة البقرة. (التحرير والتنوير، مجلد 25-26، ص 248، طبعة 1984.

أفلا يحق لنا بعد هذا كله أن نقرر : إن الأخلاق في الإسلام إنما هي سلوك مترتب قطعا عن معرفة هي بالضرورة أساس بناء شخصية الفرد المسلم وتكوينه بشكل مفض بالضرورة على اعتبار كل سلوك مقبول إنما هو في واقع الأمر خلق فاضل مرغوب فيه- إسلاميا- ومدعو إليه باعتباره مؤكدا لمعنى الذاتية الإنسانية المؤمنة، في حين إن كل سلوك غير مقبول، إنما هو في واقع الأمر، خلق سيء مرغوب عنه بل مرفوض إسلاميا، باعتباره اعتداء على الذات وهدما لها على ان مسؤولية الفاعل في الحالين قائمة حيث يترتب عليها الجزاء الأوفى توبا أو عقابا.

أما ثاني تلك العوامل الملزمة بالأخلاق إلزاما أدبيا، بل أبعد من ذلك إلى درجة الاقتراب من الإلزام المادي الفاعل المؤثر، وأعني به : الضمير، الذي هو قوة باطنية رادعة عن الشر مغرية بالفضيلة، إن الضمير الذي هو هبة الهية، أودعه الله في صدر كل كائن بشري، يمتاز بالحضور الدائم وإصدار حكمه في الآن، وبأنه — وهذا مهم

جدا- لا يعرف مواربة ولا مداهنة ولا مجاملة، ويصدر أحكامه الآنية حيث تبرز في شكل راحة بال واطمئنان نفس، أو في حال من التأنيب واللوم والتبويخ والقلق فإذا الصدر ضيق والنفس في حشرشة.

وثالث تلك العوامل : الأسوة الحسنة، أو المثل الصالح، وأهميته تبدو في حد ذاته عامل جذب للاقتداء، وأعزاء بالإتباع، ودعوة خفية ذكية للسير على المنوال، قال تعالى : "ولكم في رسول الله أسوة حسنة" ومن هنا يظهر جليا اقتداء الصحابة بالرسول الأعظم واقتداء التابعين وتابعي التابعين ولا غرابة في ذلك فقدوته القرآن الكريم كلام رب العزة الذي: "يهدي للتي هي أحسن".

ورابع تلك العوامل : التشريع، إذ النظر الدقيق لجميع مجالاته (عبادات، معاملات) بين أنها قائمة في كلياتها وجزئياتها على أساس أخلاقي متين وإنما ترمي إلى أن تسود الأخلاق المجتمع الإسلامي، وأن تصبح عادة مستحكمة في الفرد المسلم بها يتميز عن غيره وفي كنفها تتبلور ملامحه وتتحدد شخصيته.

ومهما يكن من أمر فإنه لا ينبغي أن يكون فيما ذكرت حتى الآن ما من شأنه ان يشق على عموم الناس فيما قد يتراءى لهم من ضرورة البحث والتنقيب عن أصول الأخلاق الإسلامية باعتبار أن ذلك كله غير ميسر لعموم الناس من ذوي العلم المحدود والثقافة

البسيطة، فمن عناية الله بعباده ورحمته بهم أن هيأ عليه وسلم عن البر باعتباره عنوان الفضيلة التي يحرص كل مسلم على اتباعها رغبة في أن يكون في المنهج الإسلامي القويم، وحرصا على أن يعصم نفسه من كل ما من شأنه أن يميل به نحو الشبه التي هي بداية كل زيغ فأجاب عن هذا السؤال الخطير بقوله: "البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس" ضرورة أن : القلب، والنفس، الصدر، قدر مشترك، وعطاء مشاع بين جميع الناس في كل مكان وزمان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحباء المجلة، يمكنكم من الآن تجديد اشتراككم السنوي لسنة 2009 في مجلة "الإتحاف" عن طريق حوالة بريدية على العنوان التالي: مجلة الإتحاف ص.ب 45 سليانة 6100 أو تحويل المبلغ مباشرة في رقم الحساب الذي تجدونها في الصفحة الأولى.

أَجْمَلَ الأُمْنِيَاتِ!

شعر: محمد الهادي بوقرّة

عَلَى شُرُفَاتِ السِّنِينِ الجَدِيدَةْ

تَجِيئُكِ كُلُّ الفَرَاشَاتْ ..
وَتَأْتِيكِ كُلُّ الحَسَاسِينِ مِنْ شَجَرٍ فِي القَصِيدَةْ ..

وَيَمْتَدُّ قَوْسُ قُزَحْ
جُسُورًا مِنَ اللَّوْنِ وَالرِّيشِ وَالضَّحِكَاتْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إِلَى جَنَّةٍ مِنْ مُنَى وَفَرَحْ
فَتَشْرَعُ فِي لَفَتَاتِكِ أَبْوَابَهَا
وَتَسْكُبُ فِي خُطُوَاتِكِ أَطْيَابَهَا
وَتَرْفَعُ أَحْلَى قَدَحْ
عَلَى نَخْبِ عَيْنَيْكِ إِذْ تُشْرِقَانِ
بِكُلِّ الأَغَانِي السَّعِيدَةْ ،
وَنَخْبُ الزَّمَانِ يَجِيءُ بِمَا تَشْتَهِينَ
مِنَ الأُمْنِيَاتِ البَعِيدَةْ ...

مطر لسماء التجلّي.

شعر: صالح الطرابلسي

يا غامضا في تجلّيكَ!
كيف لي أن أفتح في "صادِكَ"
المغاليق؟!
كي أراني جليّا!؟
كيف لي...
أن أأنّث جسدي مؤجّج الجمر
كي أمدّه
في مداك "ألِفا" مديدا خصيبا؟!
وأعيدُني
سادر الرّوح إنسانا سويّا!

✠ ✠ ✠

أيّتها الصّباحات القادمةُ
من سحوف تتحلّب في حريق
السّؤالِ،

أسبلي الجناحين نمتطيهما
للرّحيل في أفق التحلّي.

✠ ✠ ✠

يا حاديَ الرّاح عَنِّقْها
جيّدا
ثمّ أعتقها: "لاَمًا"،،،
تنهى عن ارتكاب ما يخزيها...
و"لاَمًا"
تنصب الحاضر جسرا لِغَدٍ...
يعانق الشّمس...
و"لاما" أخرى
تستشرف الآتي
كي تؤكّده غاية، لا بدّ الفعل
يدركها!...

✠ ✠ ✠

الحاء حصني بلا أسوار...
والحصان الّذي أمتطيه براقا!...
لأمتشق لوحي وقرطاسي، وأزرعني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في تلافيف أرضي تعاليم

للهوى والشّباب!!

إنّي العاشق الوله، والرّوح جفاف،

كلّما

أسقيتها

من خمرك ظمئت

يا حادي الرّاح

عُبَّ لي من سلافتها،

حتّى انفلاق الصّباح

إنّ في شربها

علقم البلوى، بلى!...

لكنّها

حين انتشاء الرّوح بها

عسل منقّى...

من لظى الورد ومن شظيّات

الأقاحي!

✠ ✠ ✠

ضيّقا

كان بيتنا!

يحتوينا عشًا صغيرا

قد بنيناه...

من هشيم فصول عجاف،

ومن طينة من ماء

لم تلوّثه الطّحالب...

ثلّة كنّا من العصافير

بلا زغب،

ترقّنا الأمّ ممّا تنبت الأرض،

وممّا يحتويه الصّدر من دَرّ

حنان...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يضوع بالمحبّة

✠ ✠ ✠

كبُرنا...

وشبّ عن الطّوق حلمنا...

فإذا الهوى،

واعجبي... يستفزّ على الهوى

شرسا...

وسنابل الرّوح،

قد غادرت بيادر الجسد.!.

✠ ✠ ✠

قاحل جسدي،

حسرتي، كيف أستعيد

ما أتلفته زوابع الرّمل

من واحة خضراء؟

كيف أعيد إلى قامتي

شموخ النّخيل الباسق،

وخيول العشق نامت على

برد مصاطبها،

فاستكان صهيلها إلى زمن:

يغتال عشبة الرّوح فينا.

✠ ✠ ✠

جسدي...

يا الجسد المثخن

بجراح الرّغبة،

كيف لي أن أجعل،

من جحيم مراراتك

حدائق ورد.

كيف لي أن أحمل،

موتي من الوريد

إلى الوريد...

أقطف من كرمة في الحياة

عناقيد خمر معتّقة.،

لأسكبها بسمة

على شفاه طفل يُعيد

سكناه فيَّ، فأنطلق

كالنّسيم طليقا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حين يهبّ على الدّنيا،

يخرّ لها اللّيل مطعونا بأنوار

أنجمه،

ويسجد القمر،

وطيور البراري تغنّي

على وقع آهاته،

وبما جرحها،

فيرقص الشّجر

✠ ✠ ✠

يا التي قد شكّلتني،

جسدا قد انصهر

في وهج تربتها،

سأظلّ أقايض الدّهر

الجحود،

حبوب براءتي،

لأنثرها،

عبر امتداد سهولك الخضر

وأظلّ أعدو بين روابيك جداول

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رنّانة

لا ينضب في عذوبات أمواهها

صوت الخرير

وأظلّ البلبل الغرّيد:

أوقّع

من ضوع حسنك الدفّاق،

أحلى أناشيدي

أوزّعها

على أهلي الطّيّبين،

هديّة لأحلى المواعيد.

من قصائد بيان الحديقة

شعر: عمر سبيكة

إله الحديقة يبكي،
خيوط الهفا
أفق خافت يتهدّل،
و الطّفل
يطفي غيبوبة الظّلّ
حتّى يصدّق
أكذوبة القمر المتهلّل.
مازال
يسرح خلف مسارح أسحاره اللّيل،
مازال
يسرح خلف مناراته الخافته،
يتهدّج،
مازال
يمرح
فوق سماوة غربته الطّفل،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يحتفل،

****

السّماء حياديّة

في اضطرام هواجسه،

السّماء رماديّة

في انطفاء هواجسها،

ترفّ

على صفحة النّهر أغصانها،

و تدفّ

على صفحة النّهر أحزانه،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

و مازال

يرفع جمجمة تتألّق صيحتها

في امتداد الفلاة،

و مازال يوقظ بستانه الطّفل،

تجري على الماء رؤياه،

****

ينبجس الماء

من نظرة الطّفل،

ينبجس الطّفل

من نظرة الماء،

لا شيء ينطفئ الآن،

لا شيء يلتمع الآن،

لا شيء ينخفض الآن،

لا شيء يرتفع الآن

خلف سياج الحديقة

غير احتمال الحياة.

******

تراجع مدّ المدى،

و تمادى الفتى على التلّة الذّائبه،

و مازال يسرح

خلف مسارح صيحته الصّمت،

يسرد ذاكرة الماء،

اليوم عيد اليقين،

ستدنو من الأرض

شمس رماديّة

ترعى

في ابتسامات أطفالها الجائعين،

و تدنو من الشّمس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أرض سماويّة

ترعى

في سماء حرائقها،

و مازالت الأرض تحترق،

****

و لَمّا تذكّر

ما قاله القلب،

التهب النّهر

في الغمغمات،

تراجع مدّ المدى

بالبيان المبدّد،

لَمّا تذكّر ما قاله الماء،

استبق النّهر فرحته

في ابتسام الصّباح الوليد،

و ذابت على جمرة الفجر أجنحة البيد،

ذابت شظايا السّؤال العنيد،

و ما عادت الأرض

تطلق فرحتها

في التباس الهواجس.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

******

من ألف عام،و أكثر،

مازال يرتدّ صوت الحقّق،

تمتدّ

خلف أقاصي الرّماد النّوى،

و يمتدّ

خلف بقايا المبانـــي المدى،

و ترتد خلف الصّدى صيحة الماء

كامنة في السّؤال المبدّد:

يا طائر الحب!

أشعر بالموت يخترق الصّدر!

أشعر بالخيل يستبق القفر!

هل تعب الطّفل؟

هل تعب الظّلّ؟

هل تعب الظّلّ

يشتق لألاءه الظّلّ؟

****

يحتشد الغائبون

على صفحة النّهر،

يحتشد الميتون

على حافّة الأرض،

تكتظّ أقمارهم

و المرايا،

يصوغون

في كلّ ساح صباحة صيحاقم،

تتردّد في الوثبة القاحله،

في الشّذا،

في البيان المبدّد،

مازال ديك البوادي

يبدّد غيبوبة الماء

في نظرات الجليد.

****

يشجّر قدّاس أوجاعه الطّفل،

مازال

يركض فوق سماء الوقار،

و مازال

يجري

على حافّة النّهر

يفشي

صباحة صيحته

و الصّباح المبدّد:

يا مطرا

يرتمي في مرايا الغياب!

أعد للتّراب نبوءته!

أعد للسّماء سماوتها!

****

يدفّ الثّرى،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتهلّل

في وثبة الطّفل،

مازال يعلو

إلى هوّة

في سماء المشارف،

مازال

يعلو

إلى غصنه الذّائب القلب،

مازال يعلو

إلى حزنه الشّجر،

و تعلو السّماء

إلى غيهب الأرض،

****

ينبجس الماء

من نظرة الطّفل،

ينبجس الطّفل

من نظرة الماء،

حين تبوح التّباريح،

و الغمغمات تغمّ سماء الغد،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يوقظ الطّفل بستانه،

و يعلو إلى فكرة الورد،

مازال

يعلو إلى هوّة

في سماء الخراب الخراب،

تمدّ

على مدّه الكائنات خطاها،

تمدّ

على ظلّه الشّجرات رؤاها،

****

تبدّد لَمَاحة البوح غيبوبة الفرح المعلن

في بيان طفولتها،

و تصوغ بيان الحديقة

أعلى من المفردات؛

تغمّض شبّاكها

في انطفاء المشارف،

مازال ليل الحديقة

يسرد ذاكرة العطر

أعلى من الشّرفات العليّة،

مازال ليل الجماعة

يركض في نظرة امرأة

تتوجّع،

مازال يلمع في دمعها

قمر صادح

يتذكّر ما قاله الطّفل،

مازال يسرح في الغمغمات.

****

أسيح

74

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على هذه الأرض
خلف دمي السّارح
في انطفاء المسارح،
تحترق الأرض بين الخطى،
و مازالت الأرض تحترق،
و تنشقّ
من شهقة الطّفل
قهقهة
تتردّد ملء انطفاء الينابيع،
تشهق فوق الأكفّ
سماء من الماء

تقبس رقراقها،
و يرفع راحته الدّفّ،

****

ألموت ذاكرة الغائبين،
و ذاكريّ الوارفه،
السّماء النّجيّة
ترنيمة السّائرين على الماء،
حريّتي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن أصوغ بيان الحديقة

أعلى من السّقسقات،

و أن أحتفي بالولادة،

حرّيتي

أن أكون غريبا

على عتبات اللّقاء،

و مازال

فوق سماء الجنوب العليّة،

طفل صريح يسرّح صيحته

في الشذا،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

****

مازال

يرفع أقلامه،

و البياض العميد،

إلى آخر الأسئلة،

تذوب الرّؤى

و القرى تتأوّه،

يرتجل الطّفل

في مهمه الصّمت موّاله.

****

يسيل

إلى ملمس الغائبين

غد ذائب

في محارق غربته الفجر،

يعلو دم الغائبين

إلى أبد

راسخ في هواجس فكرته القمر،

يتذكّر

ما صاغه القلب،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يركض في حقله المطر،

شبح خائف

و دم مقمر يتبدّد،

يخفت

في وثبة الشّبح الخائف الظّلّ،

مازال

يعلو

إلى غصنه الطّائر الطّفل،

مازال

يفشي صباحة نظرته

و التّباريح،

مازال

يسبح

في النّغم السّارح

في سماء المسارح،

و مازال يمرح

في قصص الغول،

مازال يسرح

في نبرة الجدّة الرّاجفه،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

****

و يهفو

دم الغائبين،

يرفّ به الوصف،

يرخـــي ستائر إفصاحه القصف،

يطفو

على ظمإ الماء،

يطفو

على سدرة

تنتهي فوق أنقاضها المدن،

ترعى في السّدف

و تمتدّ،

يمتدّ مدّ الجنود

إلى شاطئ مقفر الخطو

مرتجف،

****

يشقّ الجناح سماء المشارف،

ينسرح الشّطّ

في السّدف،

يخفت الشّبح الخائف

في امتداد الوجيف،

و يحتفل الغول

في نبرة الجدّة الرّاجفه،

و يحتفل اللّيل

في رقصة الغائبين،

و يحتفل الطّفل،

يحتفل الماء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في قاع مرثيّة

يتألّق رفاقها

في عنان التّراب،

****

و من ألف عام و أكثر،

مازلت

أوقد في قولة الماء،

في الهمهمات

صباحا من الأقحوان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تهيم تضاريسه

و السراب،

و تعلو

إلى هوّة

في سماء الجنوب القتيل النّوى،

و مازالت الأرض

تعلو إلى هوّة في سماء الأيادي،

و تعلو إلى أفق خائف

يتحرّق في حدقات الرّماد.

انحناءات ريشة عذراء ...

شعر: الذهبي بلقاسم

مازلت أبحثُ

عن عمر داخل هذا العمر

عن خضرة

طالعة

من أعماق الصّخر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن بسمة عصفور

لها تلقائية

الغيم والمطر

مازلت أبحث عن امرأة

تحبّني وراء الثغر

امرأة

تقتحم عتمتي

مثل أشعّة الفجر

تزرعني

إكليلا وأعشابا

وزهر

امرأة

تشكّلني على رؤاها

تنحت سنواتي من درر

تُغيّر تاريخي

إن جاع جوعي

للسّفر

امرأة

تنسيني عناوين مرافئي

تُرسيني في دمائها

عن مستقرّ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظلال الماضي

قصّة: نعيمة الوسلاتي

لمحتها من بعيد تقبل نحوي بخطى مياسة باسمة الثغر. طلقة المحيّا ساحرة الأعطاف. ناعمة النظرة. حلوة السمرة.حسنة الشمائل. مشحونة بالمرح والتفاؤل. موعودة بالحبّ والفرح الدّائم.

جدائل شعرها الناعم تنسدل على كتفيها وتداعب قوامها الرشيق. نقرات كعبها العالي إيقاع يدفعني نحوها في شغف وانجذاب.

مددت إليها يدي بالسلام فتخدّرت حواسي واكتنف الضباب كلّ من حولي إلاّ هي. غبت في بريق عينيها كما تغيب الشمس في حمرة الأفق وتأوي إلى أحضانه تودعه أسرارها وكوامن ذاتها وتغتسل في أنهاره لتهلّ من جديد في أتمّ جمالها و توهّجها.

تشابكت أيدينا. تقاربت أجسادنا. اختلطت أنفاسنا. في لحظات تختصر العمر كلّه. فيض من الفتنة والسحر تدفق من ناظريها. رغبة عنيفة تأججت في صدري عربدت، نازعت، احتدمت بصفاء عينيها، ثم انسحبت في خضوع واستقرت إلى حين في مكامنها. تألّق وجهها. علت حمرة وهاجة وجنتيها. نضح جبينها. اضطربت أهدابها، تسارعت أنفاسها وافترت مراشفها عن بسمة نديّة أشعلت حنيني، قذفت بي في متاهة من الشوق والضمإ. همست بها أرتشف قطرات الطلّ وأطفئ نارا ظلت تتقد في

أحشائي فرنت إليّ في خفر ودلال وانبرت من لحظها سهام نافذة تسللت إلى فؤادي، هزت حشاشتي، شحذت خيالي، راقصت أشواقي فاحتضنتها بعيني وشددت على يديها الدافئتين ثم بسطت أجنحتي في نشوة وسعادة لأستمتع بمذاق الحياة الجميل وأسلمت نفسي لهفهفات النسائم العليلة تداعب أحلامي، مملأ صدري تعطّر أنفاسي، تضمّخ أشواقي، تحملني إلى عالم نورانيّ جميل حيث السماحة والنقاء.

كنا ندرس سويا في كلية الحقوق في المرحلة الأخيرة ونستعدّ لاجتياز الامتحانات النهائية للحصول على الإجازة. كنّا نشكّل ثنائيا رائعا ترصده نظرات الحاسدين من زملائنا في ذهابنا وإيابنا فلا نبالي بها. كانت ندى فتاة مستقيمة فوق كل الشبهات، تتحاشى الردّ على كلّ الانتقادات والتصرفات اللّماحة والمغرضة.... تكثفت لقاءاتنا واعتصمنا بقاعة المراجعة لنستوفي جميع الفصول الشفاهيّة والكتابية والمحاور القانونية بجميع أجزائها ونتمكن من دراسة أهم المحاضرات والمراجع والبحوث. تظافرت جهودنا وانصهر كلانا في الآخر فلم نشتك ولم نتعب. انتهت فترة المراجعة فأخذنا قسطا من الراحة وغادرنا حرم الجامعة وقصدنا المدينة العتيقة. دخلنا أحياءها الجميلة بهندستها المعمارية المتميزة فشعرنا وكأننا نعبر الحدود وندخل في شعاب التاريخ ونبحر في الماضي بجماله وفنونه وسحره، حيث تلامس وجهك نسمات معطرة فتملأ رئتيك بعبير الندّ والعنبر والبخور وتدغدغ مسامعك ألحان شجية وأغان جميلة وكلمات رقيقة تنفذ إلى صميم وجدانك فتطربك

وتحرك أوتار قلبك فتدندن وراءها ثم تنساق في منحر أسواقها الزاخرة التي تعجّ بالناس باختلاف أجناسهم وألوانهم وقد تضوعت روائح الدخان والجلود والأصباغ والعطورات وارتفع وقع النقر على النحاس وقرقرة الشيشة وأصوات الباعة فيصفو ذهنك وتتبخر أوهامك وتتبدد متاعبك وتلج عالما قريبا إلى ذاتك متصلا بجذورك... ثم تلوذ بإحدى المقاهي الجميلة لتحتسي أكوابا من الشاي وتغرق في جوّ كثير الشاعرية شديد الحميميّة فتستمتع بالطرب الأصيل مع سفراء الفن العتيق الذين أبدعوا في الزمن الجميل وانتصروا للمبادئ الجميلة والقيم النبيلة وأسعدوا قلوب المحبين وداعبوا أحلام العذارى.

انتهت فترة الامتحانات وانتهت معها حالة التوتر والتعب والإجهاد والسهر وخلد كل واحد منا إلى الراحة.

هاتفتها مرارا وتكرارا لكنها لم ترد على ندائي فذهبت إلى مكتب والدها بأحد الضواحي الراقية بالعاصمة أزفّ إليه الخبر السعيد وأستحلي أخبارها. تلقّى خبر النجاح بفرحة مقتضبة وقال بنبرة متهدّجة: كنت واثقا من ذلك.

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء. رأيت طيفا حزينا حول عينيه.

جرى السؤال على لساني قبل أن أفكّر: هل ندى بخير؟

تعكّر ما بين عينيه وانتابته هالة من القلق والتوتر والتبرّم. جنح خيالي وانصرف ذهني إلى أمور أخرى. ربّما قد ضايقه وجودي؟ ربّما يريدني أن أنسحب من حياة ابنته؟ كان وجهي مشحونا بالترقب والاستفهام.

سحابة من الحزن تعبر وجهه الجامد. كأنني ألحظ دمعة طفرت من عينه. لكنّه ألهى الحوار باقتضاب شديد ونهض فجأة قائلا: يعجبني حزمك ونضالك. مكتبي تحت أمرك وأبواب مفتوحة لك. بلّغ سلامي إلى والدك ذلك الرجل الطيّب."

خرجت حائرا مذهولا. عبرت برأسي سحائب من الخوف والظنون والاحتمالات واستسلمت لتيار متوتر محموم.

مرت أيام كأنها دهور وأنا مرابط أمام بيتها. تواقلي ضمأى والسراب يلمع أمامي. تفاقمت حيرتي وتمكنت بي الهواجس فقررت أن أطرق بابها.

تمهّلت وأنا استمرئ ذلك الإحساس العذب الذي يسبق لحظة لقائي معها كلما تواعدنا. إحساس صادق عميق بأنها فلذة من أفلاذ كبدي. زهرة نابتة بين أضلعي تستقي من حرارة دمي وترتوي من عصارة أحلامي وصبوتي.

أعلمتني مربيتها بعد أن تعرفت إليّ ورحبّت بي أنّ ندى ترقد بمستشفى الدكتور صالح عزيّز.

كاد يغمى عليّ من الذهول. أشفقت عليّ المربية فاحتفت لحظة وعادت بكوب من الماء. ثم قالت تواسيني وتربت على كتفي: الحياة مليئة بالآلام لكن يجب علينا أن نتفاءل ونواجه الحياة بشجاعة وصمود وثبات وصبر."

ولّيت على أعقابي وهرعت إليها لا ألوي على شيء.

كنت في الطريق إليها أقرع كفّا بكفّ وأحدّث نفسي: ندى مريضة؟ إنها العافية مشخصة في فتاة. لم يصدر عنها يوما أنة أو شكاة. هل كانت تستنكف عن التوجّع وتداري علّتها عني أنا، عن أقرب الناس إليها...! يا لنفسك المكابرة.... يا لنفسك الحرّة الأبية...! لماذا ندى؟ لماذا أقصيتني عنك وأنت في أمس الحاجة إليّ؟ لماذا حرمتني من مشاركتك أحزانك وقد شاركتك أفراحك؟ لماذا حرمتني من مواساتك والتخفيف عنك؟ لماذا فحزنك حزني وفرحك فرحي وألمك ألمي....! يا وجعا يسكنني، يضنيني ويعذبني....! ها قد فرق بيننا هذا الداء الخبيث وقد كنّا لا نفترق أبدا.... ها قد انتزعتك مني هذا الشيطان اللعين وأنا أعزل، لا حيلة لي ولا وسيلة... آسف يا حبيبتي، آسف يا قرّة عيني، أسأل الله وحده العون فهو المعين وهو النصير....!

ركعت أمام سريرها. مسكت يديها. قبلت كفيها. بكيت بمرارة على صدرها. نظرت إليّ في ذهول فاقدة للوعي والإدراك؟، ثم ألقت برأسها على الوسادة في وهن فضيع. عظم عليّ أن أراها على هذا الشكل من الهزال والشحوب. ذوت نظارتها وبرزت عروقها ونتئت عظامها وجمدت نظراتها واختفى بريق عينيها واكتسحت وجهها هالة من اليأس والانهيار والموت البطيء. تسللت إليّ بسمة باهتة سرعان ما اختفت وراء أنات التوجع وقد أحاطت بها أنابيب الأكسجين والأمصال المغذّية...

لا أستطيع أن أفعل شيئا من أجلها. تخر ذلك الدّاء العضال جسدها الجميل ومزق نياط قلبي وشلّ حركتي... بركان من العنف انفجر في أعماقي فطفقت أضرب حائط الغرفة بقبضة يدي وأشج رأسي بحركة هستيرية فترنحت كثيرا وسقطت في غيبوبة. هوت قلاعي وتحطمت سفني وضعت في عاصفة هوجاء من القهر والدمار...!

ماتت ندى. تركتني إلى الحزن الجارف يمزق قلبي ويتلف روحي ويفني جسدي وانتقلت إلى جوار ربّها. هناك حيث الراحة والسكينة...

لقد مرّت في سماء حياتي كنيزك متوهّج، كشهاب مضيء أضاء أيامي وأنار لياليّ. لم أبك. إنها لا تتألق في حقول الدموع والبكاء. إن مثلها يستحقّ مراسم فرح دائم. أنا أؤمن أن روحها لا تزال هنا ترفرف حولي وتظلّل عليّ في كلّ مكان وزمان معا. يد خفية تمتد منها لتمسح على جبيني وتملي عليّ آيات الصبر والتجلّد. أويت إلى فراشي أصطلي بنيران الوحدة، والشوق يصهل في أعماقي، وحيدا مستوحشا، تجلدني الظلمة بسياطها الجارحة... أحلم بيوم جديد أستريح على أعتابه، أنفض همومي، وألملم شتات نفس مكدودة، موجوعة لفّها سواد الليل وأرّق جفونها ورمى بها في غياهب العتمة حيث السّكون والموت البطيء...، تتآمر عليّ أشباح الأرق ويعصف بي السّهاد المقيت، فينقبض قلبي وتشلّ حركتي كأنني أفترش الأشواك وألتحف بنسيج القرّاص الدّامي...! وأظل أجاهد النعاس ولكنّه شيطان أخرس لا يفتأ يسخر منّي ويتربص بي وشيئا فشيئا... كأنني أغرق

في بئر سحيقة... لا قرار لها....! نمت وأنا لهب لمشاعر ممضّة تمزّق قلبي، وأسئلة موجعة تقضّ مضجعي وسكينة روحي....

رنّ جرس الهاتف... فمدّدت يدي متثاقلا لأرفع السّماعة واضعها على أذني بإعياء شديد... وإذا بنبرات صوتها تدغدغ أذني، تصلني من بعيد ولكنني أسمعها... أستوعبها بحواسي... بوقع البيض في صدري... تغازلني... تحادثني بكلمات... ليست كالكلمات...! فشعرت بكهربة فجّرت وشائج روحي، بعثرت أوصالي وبعثت حمّى الشوق في عروقي... تيّار هادر، عاصف، جنون عربد في صدري كأنه حمم من النار... تجيبه زخّات الدّم في عروقي... يجيبه لهيب الشّوق... يجيبه فيض من السحر العارم يزلزل كياني يصعقني بصهرني، يبعثني من جديد...!

كان صوتها كرجع الصدى، كحفيف أوراق الأشجار تداعبها الرياح... بدت كلماتها كألحان عذاب... كنسمات صيف ندية تعبق بالأمل... كقطرات ماء زكية تطفئ نار العطش في فم الظمآن.... كشعاع نور لاح للمظلوم... بدا لي وكأن طيفا يحملني بين جناحيه، يحلق بي بين السّماء والأرض وينتشلني من براثن الشّك والعجز... يعتقني من ربقة العدم ويبعثني للحياة كصبح جميل ينبلج فتتفتح أكمام الزهر ويورق الأمل غضبا بريح العطر وشذى الرياحين... فيرتع الفرح في قلبي كصبي أغرّ عانق الدنيا واستقبل الحياة... أفقت على رنين المنبّه بجواري... أفقت من حلم جميل وحلاوة الأمل في حلقي وشعور بالرضا والسكينة يملأ قلبي...!